سلسلة في رحاب القرآن

٥

ميراثان في كتاب الله

العجب

بقلم
الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

چاپ : امیر
قیمت : ۳۵۰ ریال

سلسلة في رحاب القرآن

٥

ميراثان في كتاب الله

العجب

بقلم

الأستاذ الشيخ محمد مهدي الآصفي

دار القرآن الكريم

بمناسبة المؤتمر الرابع للأبحاث والدراسات القرآنية في دارالقرآن الكريم، قم ٢٧ رجب ١٤١٢ هـ

سلسلة في رحاب القرآن (٥)

(ميراثان في كتاب الله- العجب)

- المؤلف: سماحة الشيخ محمد مهدي الآصفي
- الناشر: دارالقرآن الكريم، قم- ص.ب ١٥١
- الصفّ والاخراج الفني الكمپيوتري: دارالقرآن الكريم
- زينغراف: حميد - قم
- تعداد: ٣٠٠٠ نسخة
- التاريخ: ٢٧ رجب ١٤١٢ هـ

ميراثان في كتاب الله

ميراثان في كتاب الله

في كتاب اللّه نجد ثلاثة انواع من المـواريث لعباد اللّه الصالحين: ميراثين في الدنيا وميراثاً في الآخرة.

اما الميراث في الآخرة فهو الجنة يورثها عباده الصالحين والمتقين من عباده بما عملوا.

وإنما يسميـه القرآن «إرثـاً» لان اللّه تعالـى خلق الجنـة لعباده جميعـاً اذا آمنوا وعملوا صالحاً.

ولما حرم الكفار والمشـركون من الجنة بكفرهم وإفسادهـم في الارض فإن اللّه تعالى خص المؤمنين فقط بالجنـة، دون الكفار المشركين، وأورثهم الجنة التي كان يستحقها اولئك لو كانوا يؤمنون ويعملون صالحاً.

وقد روي عن رسول اللّه صلّى الله عليه وآلـه وسلّم: «ما منكم من احـد إلاّ وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فان مات، ودخل النار، ورث اهل الجنة منزله»

والارث هو الجنة والوارثون هـم المؤمنون الذين يرثون الفردوس

والايات المباركة في بداية سورة«المؤمنون» تعطي صورة واضحة للوارثين الذين يرثون الجنة .

ويقول تعالى :

﴿**قد أفلح المؤمنونَ*الَّذين هم في صلاتهم خٰشعونَ*والَّذين هم عن اللَّغو معرضونَ*والَّذين هم للزَّكوٰة فاعلونَ*والَّذين هم لفروجهم حٰفظون* ... والَّذين هم لأمٰنٰتهم وعهدهم راعونَ* ... والَّذين هم علىٰ صلواتهم يُحٰفظون*أولئك هم الوارثونَ*الَّذين يرثون الفردوسَ هم فيها خٰلِدونَ**﴾ . (المؤمنون : ١-١١)

إذن وراثة الجنة لا تتم الا بالخشوع في الصلاة، والاعراض عن اللغو، والزكاة، والصلاة، وحفظ الفروج عن الحرام، واداء الامانات والعهود .

وفي سورة (مريم : ٦٣) ورد ذكر التقوى في الاسباب التي تورث الجنة ﴿**تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً**﴾ .

وفي مواضع اخرى يقرر القرآن الكريم أن الجنة يرثها المؤمنون باعمالهم﴿**ونودوا أن تَلكُم الجنَّة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ . (الاعراف : ٤٣)

﴿**وتلك الجنَّة أُورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ . (الزخرف : ٧٢)

فلا ينال المؤمنون الجنة إلا بما قدموا من عمل صالح في الدنيا، والعمل الصالح هو الذي يورث المؤمنين الجنة .

وهذا هو ميراث الصالحين في الاخرة اما في الدنيا فقد جعل اللّه تعالى للصالحين ميراثين، ميراثاً من الظالمين والجبابرة الطغاة وميراثاً من الأنبياء المرسلين والصالحين من عباد اللّه .

وفي كتاب اللّه تعالى إيضاح وتفصيل لهذين الميراثين اللذين يرثهما الصالحون من عباد اللّه في الدنيا .

وفي هذه الرسالة نتحدث عن هذين الميراثين في كتاب اللّه .

الميراث الاول

الميراث الاول هو ميراث الصالحين من المستكبرين. وهذا الميراث هو السلطان والمال والارض: يقول تعالى:

﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكّن لهم في الارض﴾. (القصص: ٥)

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون﴾. (الأنبياء: ١٠٥)

﴿وأورثكم أرضهم وديارهم واموالهم وأرضاً لم تطؤوها﴾. (الاحزاب: ٢٧)

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الارض للّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين﴾. (الاعراف: ١٢٨)

﴿واورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمّت كلمة ربّك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾. (الاعراف/١٣٧)

دورة التاريخ في القرآن

وهذه الجملة من الايات الكريمة لها دلالات عجيبة في ترسيم سنة اللّه تعالى في تداول الايام والقوة والسلطان والسيادة بين الناس، وهي ترسم لنا دورة كاملة للتاريخ في حركته المستمرة الدائبة.

ونلاحظ نحن في هذه الحركة الاصول التالية التي ترسم لنا سنن اللّه في التاريخ:

١ - إن القوة واالمال تتبعان دائماً الصلاح والتقوى، وكلما حل بقوم الصلاح حلت معه القوة والسلطان والمال... بعكس ما يتصور الناس عادة من ان الانسان يكسب القوة والمال بالعدوان والغش والظلم والفساد، والقرآن يؤكد كثيراً وفي تعبيرات مختلفة هذا المعنى **﴿والعاقبة للمتّقين﴾**. (الاعراف: ١٢٨)

﴿وتمّت كلمة ربّك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا﴾ . (الاعراف : ١٣٧)

﴿ليجزي اللّه الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء، أو يتوب عليهم، إن اللّه كان غفوراً رحيماً*وردّ اللّه الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان اللّه قوياً عزيزاً*وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرّعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً*وأورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضاً لم تطؤوها وكان اللّه على كل شيء قديراً﴾ .(الاحزاب : ٢٤-٢٧)

٢- المال والسلطان يعّرضان الانسان للفساد والطغيان والعجب﴿كلاّ انّ الانسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾ . (العلق : ٦)

وذلك ان المال والسلطان يصيبان الانسان بالعجب والغرور، ويحجبانه عن اللّه تعالى.

وأن ما يرزق اللّه تعالى عباده من مال وسلطان لحري ان يدعو الأنسان الى الشكر والارتباط بالله سبحانه، الا ان الانسان قد يحوّل المال والسلطان في حياته الى أداة للقطيعة مع اللّه والسكر ومن ذلك يكون المال والسلطان أداة للفساد والطغيان والعجب والغرور في حياة الانسان.

يقول امير المؤمنين عليه السلام في اولئك الذين افسدتهم النعمة والمال والسلطان: «ذلك حيث تسكرون من غير شراب بل من النعمة والنعيم». (١)

ومن عجب ان يسكر الانسان، ولكن من دون شراب، بل من النعمة والنعيم، وأنها لحري ان تكون سبباً للوعي واليقظة في حياة الانسان.

٣- واذا فسد الانسان انتزع اللّه تعالى منه المال والسلطان- بعد أن يمهله ويمده في الطغيان...

﴿واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها

(١) نهج البلاغة شرح وفهرسة د. صبحي صالح١ : ٢٧٧ خطبة ١٨٧ .

تـدميراً*وكـم اهلكنا مـن القـرون من بعـد نـوح وكفى بـربك بـذنـوب عباده خبيـراً بصيراً﴾ .(الاسراء : ١٦-١٧)

وهذه هي نهاية الحضارة وسقوطها . وهي نهـاية دورة التاريخ وعندها يأذن اللّه تعالى بدورة جديدة للتاريخ ، فإن الامـم اذا افسدها المال والسلطان ، مدَّ اللّه تعالى لها فـي المال والسلطـان ، استدراجـاً لها ، وامعـاناً فـي الاستدراج ، فتـزداد فساداً ، وطغياناً ، وعند ذلك يسلبها اللّه تعالى ما أتآها من مال وسلطان ، مرة واحدة ، وينتزع منها ما رزقها من النعمة .

ذلك أنها توغل في الفساد-حالة الاستدراج- وينخر فيها الفساد من الداخل ، دون ان يظهر ذلك على السطـح المرئي من حياتها ، فتفقد الضميـر والعاطفة والقيم والاخلاق وتستولي عليها الاهواء والشهوات والنـزوات ، حتى اذا نخرت من الداخل ، بشكل كامل ، إنهارت مرة واحدة .

لهذا السبب فـان نهاية الدورة الحضـارية السقوط والإنهيار دائمـاً هو، الموت الدفعـي المفاجئ، وليـس الموت التـدريجي ، بعكـس الحال فـي ولادة الحضارات ونموها فإنها تتولد وتنمو بصورة تدريجية .

والتعبير القرآني دقيق في هذا الامر :

﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ . (الاعراف : ١٣٧)

هكذا : دمرناها مرة واحدة .

﴿أو أَمن اهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾ . (الاعراف : ٩٨)

ضحـى ، وبصورة مفـاجئة ، حيـث يعيـش الناس فـي أمان ، لا يتصـورون أن يصيبهم من هذا الوباء شر أو سوء ، وهم في غيهم وفي غفلتهم سادرون ، يلعبون ... وفجأةً يأتيهم بأس اللّه العزيز القهار فلا ينجو منهم من أحد ، ولا يمهل أحداً ابداً .

دورة التاريخ في سورة الاعراف

والآيات التالية من سورة الاعراف توضح لنـا دورة التاريخ هذه وسنن اللّه تعالى

في حركة التاريخ وميلاد وموت الحضارات .

﴿وما ارسلنا في قرية من نبي إلا اخذنا اهلها بالبأساء والضّرّاء لعلهم يضّرّعون*ثم بدّلنا مكان السّيّئة الحسنة حتى عفوا، وقالوا قد مسّ آباءنا الضّرّاء والسّرّاء فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون*ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض، ولكن كذّبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون*أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون*أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون*أفأمنوا مكر اللّه فلا يأمن مكر اللّه الا القوم الخاسرون﴾ .
(الاعراف : ٩٤-٩٩)

في بداية الامر يبتليهم اللّه ، ليتضرعوا اليه تعالى ، وليهتدوا ، وليأخذوا باسباب الهداية والنجاة .

وهذه هي مرحلة «الابتلاء» و «التمحيص»

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾

فاذا اهتدوا ، واستقاموا على الطريق فتح اللّه عليهم بركات من السماء والارض .

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض﴾

وهذه هي مرحلة الهداية والنعمة . و إن رفضوا الهداية ، وتمردوا فان اللّه تعالى يبدلهم مكان الشدة ، الرخاء ومكان البأساء والضراء ... النعماء حتى يكثروا وحتى ينسوا اللّه تعالى :

﴿ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة ، حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والبأساء﴾

ويطبع على قلوبهم ، ويسلبهم العقل والبصيرة والوعي :

﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع اللّه على قلوب الكافرين﴾ . (الاعراف/١٠١)

﴿أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها أن لو نشاء اصبناهم بذنوبهم

ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ . (الاعراف : ١٠٠)

وهذه مرحلة المكر والطبع على القلوب والاستدراج .

ثم بعد مرحلة المكر والاستدراج تأتـي مرحلة الهلاك والدمار وسقوط الحضارة الكامل والمفاجئ :

﴿فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ .

لاحظوا : «بغتة» ، مرة واحدة وبصورة مفاجئة وهم لا يشعرون :

﴿أفأمن اهـل القرى أن يأتيهم بـأسنا بياتاً وهـم نائمون*أو أمن اهـل القرى ان يأتيهـم بأسنـا ضحى وهم يلعبـون*أفامنـوا مكر اللّـه ، فلا يأمـن مكر اللّـه الا القوم الخاسرون﴾ .

وهذه مرحلة «الهلاك» و«المحق» .

دورة التاريخ في نهج البلاغة

دورة التاريخ في كلمات الامام عليه السّلام :

وفي خطبة«القاصعة» من كلام الامام امير المؤمنين عليه السّلام نجد تصويراً دقيقاً لهذه المراحل الثلاثة التي يحددها القرآن الكريم لحركة التاريخ :

١ - مرحلة ميلاد الحضارات .

٢ - مرحلة الفساد والاختلال .

٣- مرحلة سقوط الحضارة .

فيضرب لنا الامام عليه السّلام مثلاً بحضارة بني اسرائيل في عصر فرعون وعند قيام رسول اللّه وكليمه موسى من عمران عليه السّلام .

يقول عليه السّلام :

«وتدبروا احـوال الماضين من المؤمنيـن قبلكم كيف كانوا فـي حال التمحيص والبلاء»

ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً ، وأجهد العباد بلاءً ، وأضيق أهل الدنيا حالاً .

إتخذتهم الفراعنة عبيداً، فساموهم سوء العذاب، وجرعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم من ذل الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع، ولا سبيلاً الى دفاع». (١)

وهذه هي مرحلة الابتلاء والتمحيص التي تهيىء الامة للصلاح والاستقامة، ولابد لكل استقامة وصلاح في حياة الامم من المرور بمرحلة من الابتلاء والتمحيص، الذي يعد الامة للاستقامة والعودة الى اللّه تعالى.

ولم نتحدث نحن عن هذه المرحلة من رسم دورة التاريخ في هذا الحديث، كما لم نتحدث نحن عن مرحلة الاستدراج بصورة مستقلة.

ثم يقول عليه السّلام:

«حتى اذا رأى اللّه جدّ الصبر منهم على الاذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضائق البلاء فرجاً، فابدلهم العز مكان الذل، والامن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، أئمة أعلاماً، قد بلغت الكرامة من اللّه لهم ما لم تبلغ الامال بهم.

فأنظروا كيف كانوا حيث كانت الاملاء مجتمعة، والاهواء متفقة، والقلوب معتدلة، والايدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واجدة ألم يكونوا أرباباً في أقطار الارضين وملوكاً على رقاب العالمين؟». (٢)

وهذه هي المرحلة الاولى من الدورة الحضارية للتاريخ مرحلة ولادة الحضارة الالهية ونشوئها.

ثم يحدثنا الامام عن المرحلة الثانية حيث يبدأ الفساد يدّب في جسم هذه الحضارة وتنخر هذه الحضارة من الداخل، وتتحول نعم اللّه تعالى من جسور للارتباط بالله تعالى الى حجب وحواجز تحجب الانسان وتحجزه عن اللّه فيلهو باللعب واللهو والسكر وينسى نفسه، وتتحكم فيهم الاهواء، ويكثر فيهم الخلاف،

(١) المصدر السابق ١ : ١٧٧.

(٢) المصدر السابق ١ : ١٧٧.

وتختلف لديهم الاراء والاهواء.

يقول عليه السّلام:

«فانظروا الى ما صاروا اليه في آخر أمورهم حين وقعت الفتنة، وتشتتت الالفة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين».(١)

ثم يتحدث الامام بعد ذلك عن المرحلة الثالثة: مرحلة السقوط والانهيار، حيث يسلبهم اللّه تعالى نعمه كلها ويفاجؤهم بغضبه وبأسه ضحى وهم يلعبون.

«قد خلع اللّه عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين».(٢)

وهذه المحنة الاخيرة، ليست من نوع «ابتلاء التمحيص» الذي كان يحض المؤمنين من عباد اللّه، والذي كان يعد الامة لميلاد حضاري جديد.

... وإنما هو نوع آخر من المحنة يعبر عنها القرآن الكريم بـ«المحق» في مقابل التمحيص، وهو يخص الحضارات ﴿**وليمحّصَ اللّه الذين آمنوا ويمحق الكافرين**﴾. (آل عمران: ١٤١)

وكلاهما من المحنة الا أن احدهما محنة للتمحيص والتزكية والتطهير والاخر محنة للمحق والهلاك والتدمير.

حرية القرار

ولابد أن نشير في هذه النقطة من الحديث الى مسألتين هامتين، لهما علاقة مباشرة بهذه الدورة الحضارية في التاريخ.

الاولى أن استتباع المال والقوة للصلاح والتقوى قضية حتمية في مسير التاريخ.

(١) المصدر السابق ١: ١٧٧.

(٢) الموافقات للشاطبي ٢: ١٢١.

كما أن سقوط الحضارات وموتها و إنهيارها بإنتشار الفساد والاخلاق في الامم قضية حتمية ، في هذا المسير، ومن سنن اللّه الثابتة التي لا تتبدل وليس للانسان أن يغير هذه الحتميات التاريخية والسنن الالهية في حركة الحضارة ودورة التاريخ .

انها تشكل الشطر الحتمي من دورة التاريخ . وتفعل وتؤثر بصورة حتمية ثابتة من حياة الانسان دون أن تتبدل أو تتغير أو تتحول .

فاستمع اليه تعالى في آياته البينات حيث يقول : **﴿سنة اللّه في الذين خلوا من قبل ، وكان امر اللّه قدراً مقدوراً﴾** . (الاحزاب : ٢٨)

﴿ولن تجد لسنة اللّه تبديلا﴾ . (الاحزاب : ٦٢)

﴿ولن تجد لسنة اللّه تحويلا﴾ . (فاطر : ٤٣)

﴿سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ . (الاسراء : ٧٧)

إلا أن حتمية هذه العوامل في حركة التاريخ لا تعني حتمية حركة التاريخ ... فان حركة التاريخ في النظرية الاسلامية ليست حركة حتمية ، وإنما هي تابعة لتحرك الانسان وتوجهه .

وذلك أن شطرين آخرين من الاجزاء المؤثرة في تحريك التاريخ والحضارة هما من صنع الانسان وارادته ، وهما حركة الانسان نحو الصلاح أو حركته نحو الفساد .

إن تحرك الانسان بهذين الاتجاهين خاضع لاختيار الانسان بشكل كامل ، وان كان للابتلاء والتمحيص دور مساعد معروف في توجيه الانسان الى الصلاح ، وللمال والسلطان دور مساعد معروف في اغراء الانسان بالفساد .

لكن الانسان يبقى مع ذلك كله ، صاحب القرار في الصلاح والفساد والاستقامة والضلال ، وتبقى له حرية اتخاذ القرار والتوجه في هذا الامر بشكل كامل .

وحركة الانسان نحو الصلاح أو الفساد مفتاح لكل الدورة التاريخية والحضارية في حياة الانسان وتفسير كل التحولات الحضارية التي تحدث للانسان .

وقد اعطى اللّه تعالى هذا المفتاح بيد الانسان يتصرف به باتجاه الهدى أو

الضلال

﴿الم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين، وهديناه النجدين﴾. (البلد: ١٠)

﴿إنا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً﴾. (الانسان: ٣)

وهذه الحرية في اتخاذ القرار والتحرك باتجاه الصلاح أو الفساد تعطي الانسان دوراً فاعلاً في صنع التاريخ.

وبهذا التوضيح نجد أن النظرية الاسلامية تختلف اختلافاً جوهرياً عن نظرية «الحتمية التاريخية» التي تتبناها المادية التاريخية... إن دورة الحضارة وحركة التاريخ تجري في نظرية المادية التاريخية بصورة حتمية، لا يستطيع الانسان ان يغيرها.

اما في النظرية الاسلامية في حركة التاريخ، فإن الانسان هو العنصر الفاعل المحرك للتاريخ، وبيده مفتاح حركة دورة التاريخ، ويتمتع في هذه الحركة الفاعلة بكامل حريته في اتخاذ القرار وفي التوجه والتحرك.

الدور الفاعل والمسؤول للانسان في حركة التاريخ

ليس الانسان اذن خشبة عائمة في مجرى التاريخ مسلوب الارادة والاختيار... وإنما يشكل الانسان في هذه المسيرة الحضارية عنصراً فاعلاً ومسؤولاً.

ومركزه في التاريخ مركز التغيير والقيادة، والى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم.

﴿إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. (الرعد: ١١)

﴿ذلك بأن اللّه لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. (الأنفال: ٥٣)

إن هاتين الايتين تشيران الى المركز والدور التغييري الفاعل للانسان في حركة التاريخ، وأن حركة التاريخ تابعة لارادة الانسان واختياره وليس العكس.

ولا يمنع من هذه الحقيقة اطلاقاً الشطر الحتمي من قوانين التاريخ وسننه، اذا

كان هذا الشطر هو المنفعل اتجاه ارادة الانسان .

والآية الكريمة تتألف من حقيقتين :

حقيقة حتمية لا سبيل للانسان الى تغييرها وتبديلها وهي الجزء المتعلق بارادة اللّه تعالى بتغيير الاوضاع المادية والمعيشية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية للامة .

وحقيقة إرادية تابعة لاختيار الانسان وهي الجزء المتعلق بارادة الانسان لتغيير نفسه ، والذي يستتبع بشكل ضروري التغييرات الحتمية من القسم الاول .

العلاقة بين الجانب المادي والمعنوي من حياة الانسان

والمسألة الثانية التي لابد ان نشير اليها بهذا الصدد العلاقة الوثيقة بين الشطرين المعنوي والمادي من حياة الانسان ، فليس هذان الشطران من الحياة أجنبيين عن بعض ، كما يتصور بعض الناس ، بل هما مرتبطان ببعض إرتباطاً وثيقاً والجانب المعنوي من شخصية الانسان والامة يؤثر تأثيراً مباشراً وقوياً في الجانب المادي ، ولا يصح فصل هذين الجانبين عن بعض ولا يصح تجزئة شخصية الانسان والامة الى جزئين منفصلين ، لا علاقة بينهما .

يقول تعالى :

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ، ولكن كذّبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ . (الاعراف : ٩٦)

ولكل منهما تأثير على الطرف الاخر ، إلا أن الجانب المعنوي يبقى هو الاساس لشخصية الانسان بعكس النظرية المادية التي تنفي وجود أي تأثير للجانب المعنوي من شخصية الفرد أو الامة على الجانب المادي ، إن لم يكن الامر بالعكس : أي أن يكون الجانب المادي هو الذي يؤثر على الجانب المعنوي ويكونه .

الولادة الجديدة

تنتهي عند هذا الحد دورة التاريخ عبر مراحل الولادة والمعاناة والابتلاء والاستقامة والنعمة والاندراج والمحق والهلاك.

إلا أن اللّه تعالى لا يبقي حركة التاريخ عاطلة، فيبعث سبحانه وتعالى هذه الحركة في حياة الانسان على وجه الارض من جديد بولادة جديدة لأمة من الامم يختارها اللّه تعالى لاحتضان رسالته وحملها الى البشرية بين سائر الامم.

إذن الولادة الجديدة ليست بمعنى ظهور أمة على وجه الارض. وإنما هي بمعنى ظهور الرسالة الالهية والحركة على خط هذه الرسالة في إحدى الامم، يختارها اللّه تعالى لهذه المهمة فتنهض بها هذه الامة دون سائر الامم.

وهذه سنة من سنن اللّه تعالى لئلا تتعطل حركة التوحيد على وجه الارض، ولا تنتهي هذه الحركة بمحق الامم وهلاكها.

والامة الجديدة التي إختارها اللّه تعالى لإحتضان رسالته وتبنّيها وحملها الى البشرية تتحرك على نفس النهج السابق من السنن الالهية.

وهذا النهج يتلخص في حركتين حركة صاعدة وحركة دائرية.

والحركة الصاعدة هي الحركة التي ترتفع بالامة الى اللّه تعالى في مسيرة تصاعدية إبتداءً بولادة الامة وإستخلافها ثم التعرض للابتلاء والمعاناة «لعلهم يضرعون» ثم الاستقامة والتقوى، والاستقامة والتقوى يستتبعان المال والسلطان، وللمال والسلطان دور مباشر في إثارة الذكر والشكر والعرفان بالحمل في القلوب والنفوس السليمة وكل ذلك من عوامل التقوى وأسباب الصعود والقرب الى اللّه تعالى.

ومن خصائص الشكر أنه يزيد من نعمة اللّه تعالى «المال والسلطان والعافية». «لئن شكرتم لأزيدنكم». وزيادة المال والسلطان والعافية تصعد درجة الشكر والذكر في النفوس والقلوب السليمة، وهكذا يتسلسل الانسان في حركة تصاعدية

الى اللّه .

وهذه هي حركة الانسان التصاعدية الى اللّه تعالى . والى جنب هذه الحركة يوجد نوع آخر من الحركة وهي الحركة الدائرية .

وقد شرحنا مراحل هذه الحركة من قبل .

ولادة ثم إبتلاء ، ثم إستقامة وتقوى ثم ينعم اللّه على هذه الامة بالمال والسلطان فيشيع المال والسلطان الغرور والطغيان «في النفوس والقلوب المريضة» .

ثم إستدراج ثم هلاك ومحق . ثم يبدأ التاريخ دورته من جديد .

وهاتان حركتان للامم وللجماعات . أما حركة الافراد الى اللّه فلها شأن آخر وحديث آخر لا يدخل في صلب بحثنا الآن .

ونستطيع أن نلخص هذه الحركة بكلمتيْن «الصعود الى اللّه والسقوط» .

وكل من الصعود والسقوط يجري بموجب سنن الهية حتمية لا تتخلف ، وللانسان الخيار في إختيار هذه الحركة أو تلك ، وليس من عامل جبري يحتم على الانسان إختيار إحدى هاتين الحركتين بالخصوص . وهذا الاختيار هو أساس «المسؤولية» في حياة الانسان . ولولا هذا «الاختيار» لم يتحمل الانسان أية مسؤولية عن سلوكه ومواقفه .

إلا أن النتائج المترتبة على هذه الحركة أو تلك التي يختارها الانسان نتائج حتمية لا تتغير ولا تتبدل **﴿ولن تجد لسنة اللّه تحويلاً﴾** .

ونعود الآن الى حديث الولادة الجديدة للتاريخ .

بعد كل محق وهلاك ولادة جديدة في التاريخ ، وهذه الولادة الجديدة تتلخص في إستخلاف اللّه تعالى لإحدى الامم محل الامة الهالكة وإيراثها المال والسلطان الذي خلفته الامة الهالكة بعد هلاكها وسقوطها فلا تتعطل سنن اللّه تعالى ولا تتعطل حركة الانسان إلى اللّه تعالى . وهكذا تستمر هذه الحركة وتتصل حلقاتها عبر العروج والسقوط والتعثر، الى أن تلتقي اللّه تعالى .

﴿يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه﴾ . (١)

وعن هذه الولادة الجديدة يعبر القرآن الكريم بثلاث تعبيرات وهي تعبيرات دقيقة وبليغة في تفهم سنن اللّه تعالى .

وهذه التعابير هي :

«الاستبدال» و «الاستخلاف» و «الارث» .

يقول تعالى : ﴿واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ . (الانسان : ٢٨)

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ . (التوبة : ٣٩)

(١) هذه الآية الكريمة تشير الى معنى لطيف ودقيق . فليس المقصود بالانسان في هذه الآية «الفرد»، فليس كل فرد يلقى اللّه تعالى، وليس كل فرد يكدح الى اللّه . والآية الكريمة صريحة في المعنيين معاً، الكدح ولقاء اللّه .

«إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه» وتفسير لقاء اللّه الموت تفسير غير دقيق . فليس كل من يموت يلقى اللّه تعالى، ففي «لقاء اللّه» من السمو والعلو ما ليس في الموت . وهل يصح أن يكون في موت المجرمين والساقطين «لقاء اللّه» تعالى بما تحمل هذه الكلمة من رقة وسمو. وليس كل من يموت يكدح الى اللّه كدحاً . وما أكثر ما يموت الناس وهم لم يعرفوا اللّه تعالى ولم يكدحوا اليه عز شأنه طرفة عين .

فلا يجوز إذن أن يكون المقصود من الانسان «الفرد» .

ولا يصح أن يكون المقصود من الانسان الامم والجماعات، فما أكثر الامم والجماعات التي تعثرت وسقطت وهلكت دون أن تلتقي اللّه تعالى .

إذن التفسير الوحيد لهذه الآية الكريمة، والله عز شأنه أعلم بمراده، إن مسيرة الانسان تنتهي الى اللّه تعالى بعد كدح طويل وبعد سقوط الكثيرين، وإن هذه القافلة بمجموعها ومجملها ومن خلال تاريخها الطويل عبر الاجيال والامم تنتهي في حركة صاعدة الى اللّه تعالى.

ولن يضر بهذا المعنى سقوط الافراد والجماعات والامم خلال المسيرة .

وهو تماماً كما لو كان المعلم يخاطب تلاميذه في بدء رحلة التعليم إنكم تنتهون في دراستكم الى الدراسات الجامعية العليا . اذا كانت غاية الطلبة هي الوصول الى التخصص في الدراسات العالية . ولن يضر ذلك تعثر مجموعة من الطلاب وسقوطهم وتركهم لدراسة . وكذلك مسيرة البشرية وإن كانت تتعثر في حركتها بين العروج والسقوط، ومهما كثر السقوط في حياة الانسان وتاريخه الطويل فإن عاقبة هذه المسيرة هي لقاء اللّه .

إن الفلاح يزرع أشجار البرتقال لتثمر البرتقال ويعلم أنها سوف تثمر وإن كان بعض هذه الاشجار يذبل أو يموت أو تثمر أو لا تثمر.

﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ . (الانعام : ١٣٣)

﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً﴾ . (هود : ٥٧)

﴿وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما إستخلف الذين من قبلهم﴾ . (النور: ٥٥)

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون﴾ . (الانبياء : ١٠٥)

﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها﴾ . (الاحزاب : ٢٧)

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ . (الاعراف : ١٣٧)

﴿وقالو الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض﴾ . (الزمر: ٧٤)

﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ . (الشعراء : ٥٩)

﴿كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾ . (الدخان : ٢٨)

وهذا هو الميراث الذي ذكرناه في هذا العنوان، ميراث المؤمنين من الطاغين والمستكبرين، وهو المال والقوة والسلطان والارض.

والله تعالى يختار بعد هلاك الظالمين أمة من بين سائر الامم ليحملها مسؤولية النهوض برسالة التوحيد وتبنيها و إحتضانها وحملها الى سائر الامم، ويورثها ما خلفه الظالمون والمستكبرون من بعدهم من مال وسلطان وأرض.

أما لماذا يختار اللّه تعالى لرسالته أمة دون أخرى من سائر الامم وتتحمل هذه الامة دون سائر الامم مسؤولية النهوض و إحتضان الرسالة وتبنيها والدفاع عنها وحملها الى سائر الامم... فهو شأن من شأن اللّه عزوجل، وبالتأكيد له سبب وحكمة. نسأل اللّه تعالى أن يشرح صدورنا له ولعلنا نجد في هذه الآية المباركة مفتاحاً لفهم هذه الحقيقة.

﴿هو الذي يبعث في الاميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ . (الجمعة : ٢)

والآية الكـريمة هـذه تشير الـى ولادة هذه الامة، وقـد إختار اللّـه تعالـى عرب الجزيرة دون سائر الشعوب لحمل هذه الرسالة.

ويعبر عنهم القرآن الكريم بـ«الاميين».

وقد كان يحكم في الارض في تلك الفترة «فترة من الرسل» حضارتان جاهليتان عريقتان قد ورثتا المواريث الحضارية للحضـارات الجاهلية السابقة عليها كالهندية والاغريقية والبابلية والاكدية والسومرية وغيرها.

وهـاتان الامتـان الجاهليتـان «الفارسيـة والرومـانية» كـانتا بحكـم هذا العمـق الحضاري قد تشبعتا بالافكار والمفاهيم والقيـم والاعراف الجاهلية وتلوثت أفكارهم وقلوبهم بهـا، ولم يكن من السهـل تجريدهم وتخليصهـم عنها ليحملوا رسالـة اللّه تعالى نخبة صافية الى البشرية.

والعرب فـي قلب الصحراء لطبيعة مـوقعهم الجغرافي كـانوا معزولين عـن هذه المؤثرات الحضارية.

والتعبير القـرآني دقيق وبليـغ «في الاميين» والامي مسنـد الى الام، وكأنهـم قد ولدوا لتوهم من بطون أمهاتهم لا يعرفون شيئاً ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً**﴾. (النمل: ٨٨)

وليـس معنى ذلـك أن العرب كـانـوا في الجـاهليـة على الفطـرة، ولم تتلـوث فطرتهـم. وإنما يقصـد أن الجاهلية العـربية لـم تكن ذات عروق ضـاربة فـي عمق الحضارات الجاهلية، وبتعبير آخر كانت الجـاهلية العربية جاهلية غير متحضرة ولا تحمل عمقاً حضارياً كما كانت الجاهلية الرومانية والفارسية.

ولهذا السبب كـانت البيئة العربيـة في الصحراء أكثر تهيـؤاً لقبول هذه الرسـالة وإحتضانها وتبنيها وحملها الى البشرية.

قد يكون هذا هو السبب في إختيار اللّه تعالى الجزيرة العربية منزلاً أولاً للوحي دون سائر الاوساط والبيئات.

ومهما يكن من أمر فإن حركة التاريخ والتوحيد لا تتعطل، وإنما يختار اللّه لها

من بين الامم أمة يورثها ميراث الظالمين ويبعث فيهم رسولاً ويستخلفهم محل الذين ظلموا وأهلكهم اللّه بظلمهم .

وهذه الامة الفتية التي يبعثها اللّه تعالى من بين سائر الامم هي التي ترث مواريث الظالمين من مال وسلطان وقوة وأرض وتحل محلهم وتتولى السيادة على وجه الارض .

﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون**﴾ .

وهذا هو الميراث الاول من ميراث المؤمنين . وهو ميراث المؤمنين من الظالمين .

الميراث الثاني

واما ميراث المؤمنين من سلفهم. من الأنبياء والصديقين والصالحين فهو العبودية ومنطلقاتها واحكامها وقيمها واخلاقها.

وهذا الميراث ينتقل من جيل ليسلمه الى الجيل الذي يأتي من بعده.

والقرآن الكريم يشير في اكثر من موضع الى هذا الميراث الحضاري، يقول تعالى:

﴿**ثمَّ أورَثنَا الكِتَـٰبَ الَّذينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا**﴾.(فاطر:٣٢)

﴿**ولَقد ءاتَينا موسَى الهُدَىٰ وأورَثنا بَني إسراءيلَ الكِتَـٰبَ**﴾.(غافر:٥٣)

إن هذا الميراث ليس ميراث المال والسلطان، وإنما هو ميراث الهدى والبينات والكتاب والعبودية والقيم والاخلاق، ميراث يحفظه قوم ويضيعه قوم آخرون.

وليس بقليل الاقوام الذين ضيعوا هذا الميراث واستبدلوا بالصلاة الشهوات.

يقول تعالى:

﴿**أُولَـٰئِك الّذينَ أنعَم اللهُ عَلَيهِم مِن النَّبيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ ومِمَّن حَمَلنا مع نوحٍ ومِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإسراءيلَ وممَّن هَدَينا واجتَبَينا إذا تُتلَىٰ عَلَيهم ءايَـٰتُ الرّحمَـٰنِ خَرّوا سُجَّداً وبُكياً*فَخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلْفٌ أضَـٰعُوا الصَّلوٰةَ**

واتَّبَعوا الشَّهَواتِ فَسَوفَ يَلقَونَ غَيّاً﴾. (مريم:٥٨-٥٩)

وحدة المسيرة الربانية على وجه الارض

ولا يتكون هـذا الميراث الحضاري مرة واحـدة وإنما يتكون ويقـوى ويتسع تيارها ويتأصل اكثر في الارض، وفي نفوس المؤمنين كلما يمر به جيل أو يمتد به الزمن.

وهذا الميـراث العقائدي والحضاري الكبير يشمـل الايمان بالله، والـرسول، والقيـم، والولاء، لله وللـرسـول ولاوليائه، والاخـلاق، والقيـم، والسلوك، والحـب، والبغض، والاعراف، والتقاليد، وحتى المصطلحات، والشعارات. . . وهي تنتظم في حقول من حياة الانسان.

وليس من الممكن اطلاقاً أن تتكون كل هـذه الكنوز العقائدية والحضارية في حياة الجيـل مرة واحـدة. . . وإنما تتحـول من جيـل الى جيـل يستلمها كـل جيل ليسلمها الى الجيل اللاحق.

وخلال هـذا الانتقال والعبور عبـر الاجيال يزداد هـذا الميراث عمقاً وأصـالة ورسـوخاً ووضـوحاً.

ونحن نـلاحظ في القـرآن هذا التماسـك والارتباط بيـن أجزاء ومراحـل هذه المسيرة العقائدية والحضـارية الكبرى، ونلاحظ تأكيد القـرآن على الارتباط بهذه المسيرة، بشكل عام ومـن دون تفرقة، وأن هذه المسيرة بمجموعهـا هي الاسلام، ولن يقبل الله تعالى غيره من الانسان.

﴿قـل ءَامَنَّا بِـاللّهِ ومـا أُنزِلَ عَلَينـا وما أُنـزِلَ عَلَىٰ إبـراهيمَ و إسمَـٰعيلَ وإِسحَـٰقَ ويَعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ مـوسَىٰ وعيسَىٰ والنَّبيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَيـنَ أَحَدٍ مِنهُم ونَحـنُ له مُسلِمونَ *ومَن يَبتَـغِ غَيرَ الإسلَـٰمِ دينـاً فلَن يُقبَلَ مِنهُ وهوَ في الآخِرَةِ مِن الخَـٰسِرينَ﴾. (آل عمران:٨٤-٨٥)

﴿قولـوا ءَامَنَّا بِـاللّهِ ومـا أُنزِلَ إلَينا ومـا أُنزِلَ إلَـىٰ إبراهيـمَ و إسمَـٰعيلَ وإِسحَـٰقَ ويَعقوبَ والأَسباطِ وما أوتيَ موسَـىٰ وعيسَىٰ وما أوتيَ النَّبيُّونَ مِن

رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ مِنهُم ونَحنُ له مُسلِمونَ*فَإن ءَامَنوا بِمِثلِ ما ءَامَنتُم به فَقَدِ اهتَدَوا وإن تَوَلَّوا فإنَّما هُم في شِقاقٍ فَسَيَكفيكَهُمُ اللهُ وهوَ السَّميعُ العَليمُ*صِبغَةَ اللّهِ ومَن أحسَنُ مِنَ اللهِ صِبغَةً ونَحنُ لهُ عَـٰبِدونَ﴾.(البقرة:١٣٦-١٣٨)

وليس معنى ذلك أن نأخذ نحن اليوم ديننا من التوراة والانجيل... وإنما المقصود أن هذه المسيرة مسيرة واحدة، وأننا نؤمن بالله والأنبياء جميعاً، لا نفرق بينهم، وأن حلقات هذه المسيرة مترابطة ومتماسكة، وأن هذه المسيرة التي تمر عبر الاجيال والقرون هي الاسلام الذي لا يرتضي الله للإنسان غيره ديناً.

ومن يرتبط بهذه المسيرة الربانية على وجه الارض فقد اهتدى، ومن تولى عنها فهو في شقاق وحرب، وليس بينهما فاصل وبرزخ.

وهذه المسيرة هي الصبغة الالهيّة التي يجب أن تصبغ حياة الانسان وتاريخه، وعقله، وعواطفه، وسلوكه، وتحركه، وسلمه، وحربه، بلونها الخاص.

وأن للحضارة الربانية التي يتوارثها المؤمنون في الارض لوناً خاصاً ومتميزاً عن سائر الالوان الجاهلية.

فأقرأ هذه الايات المباركات من سورة الأنعام:

﴿وتِلكَ حُجَّتُنا ءاتَينَـٰها إبراهيمَ علَىٰ قَومِهِ نَرفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَن نَشاءُ إنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ*ووَهَبنا لَه إسحَـٰقَ ويَعقوبَ كُلاً هَدَينا ونوحاً هَدَينا مِن قَبلُ ومِن ذُرِّيَّتِهِ داوُ,دَ وسُلَيمَـٰنَ وأيُّوبَ ويوسُفَ وموسَىٰ وهَـٰرونَ وكَذٰلِكَ نَجزي المُحسِنينَ*وزَكَرِيَّا ويَحيَىٰ وعيسَىٰ وإلياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّـٰلِحينَ* وإسمَـٰعيلَ والْيَسَعَ ويونُسَ ولوطاً وكُلاًّ فَضَّلنا عَلَى العَـٰلَمينَ*ومِن ءَابـاءِهِم وذُرِّيَّـٰتِهِم وإخوانِهِم واجتَبَينَـٰهُم وهَدَينَـٰهُم إلَىٰ صِراطٍ مُستَقيمٍ*ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهدي بِه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه ولَو أشرَكوا لَحَبِطَ عَنهُم ما كانواْ يَعمَلونَ*أُولٰئِكَ الَّذينَ ءَاتَينَـٰهُمُ الكِتَـٰبَ والحُكمَ والنُّبُوَّةَ فَإن يَكفُرْ بِها هَـٰؤلاءِ فَقَد وَكَّلْنا بِها قَوماً لَيسُوا بِها بِكَـٰفِرينَ*أُولٰئِكَ الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَيٰهُمُ اقتَدِهْ﴾.(الانعام:٨٣-٩٠)

أرأيت كيف يتماسك اطراف هذا الميراث الالهي الكبير، وتتجاذب اجزاؤه

وترتبط مراحله ببعض، وكل نبي يرث هذا الميراث من نبي مرسل قبله، وكل أمة من المؤمنين ترث هذا الميراث من أمة مؤمنة قبلها.

رسالة واحدة، وهدى واحد، وولاء واحد، وشريعة واحدة، وحب واحد، وسلم واحد، وحرب واحدة وخلق واحد، وصنعة واحدة، وإسلام واحد. . . وعناء واحد، وإبتلاء واحد، ومحنة واحدة من لدن آدم عليه السّلام الى ابراهيم عليه السّلام الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ثم بعد استعراض سريع لمسيرة النور والهدى هذه يقول تعالى لنبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم:

﴿أولٰئِك الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقتَدِهْ﴾.

تعميق الاحساس بالوراثة

يحرص القرآن الكريم على تعميق مفهوم الوراثة بشكل خاص في نفوس المؤمنين. . . ويصور المسيرة الالهية للحضارة مسيرة واحدة ذات حلقات مترابطة، متماسكة، يشدّ بعضها بعضاً ويخلف اللاحق منها السابق.

والأنبياء عليهم السّلام في هذه المسيرة يؤكدون دائماً على وحدة المسيرة، ووشائج القرى التي تربط القيمين على هذه المسيرة الربانية. وكل نبي يأتي يصدّق من قبله من الرسل والانبياء، ويؤكد أن هذه المسيرة الربانية مسيرة واحدة لا تعدد فيها وهي الاسلام، ولن يقبل الله تعالى غيره ديناً.

﴿إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلَـٰمُ وما اختَلَفَ الَّذينَ أُوتوا الكِتَـٰبَ إلاَّ مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغياً بَينَهُم﴾. (آل عمران:١٩)

﴿قُل ءَامَنَّا بِاللهِ وما أُنزِلَ عَلَينا وما أُنزِلَ عَلَىٰ إبراهيمَ وإسمَـٰعيلَ وإسحَـٰقَ ويَعقوبَ والأسباطِ وما أُوتيَ موسَىٰ وعيسَىٰ والنَّبيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنهُم ونَحنُ لَه مُسلِمونَ*ومَن يَبتَغِ غَيرَ الإسلَـٰمِ ديناً فَلن يُقبَلَ مِنهُ وهوَ في الآخِرَةِ مِن الخَـٰسِرينَ﴾. (آل عمران:٨٤-٨٥)

فليس في هذه المسيرة تعدد ولا اختلاف، وان اختلفت مراحلها، الا أن الخط

واحد والمسيرة واحدة والغاية واحدة.

ويرتبط المؤمنون السائرون على هذه المسيرة الربانية الواحدة على اختلاف العصور... بصلات قربى وشيجة، فيكون بعضهم من بعض، وهم جميعاً يشكلون اسرة توحيدية واحدة في الارض، ويرتبط اعضاء هذه الاسرة ببعض باوثق الصلات والوشائج.

تأملوا في هذه الاية الكريمة في نهاية سورة الحج:

﴿جَـٰهِدوا في اللهِ حَقَّ جِهَـادِهِ هو اجتَبَىٰكُم وما جَعَلَ علَيكُم فـي الدِّينِ مِن حَـرَجٍ مِلَّة أَبيكُـم إبراهيـمَ هو سَمَّىٰكُـمُ المُسلِمينَ مِـن قَبلُ وفـي هَـٰذا لِيَكـونَ الرَّسـولُ شَهيداً عَلَيكـم وتَكونوا شُهَـداءَ علَى النَّاسِ فَـأقيموا الصَّلـوٰةَ وءَاتوا الزَّكوٰةَ واعتَصِموا بِاللَّهِ هو مَولَىٰكُم فَنِعمَ المَولَىٰ ونِعمَ النَّصيرُ﴾.(الحج:٧٨)

وترسم لنا هذه الاية العجيبة المسيرة الحضارية التي تولى القيمومة عليها من قبلنا أبونا إبراهيم عليه السّلام، ثم كان رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم على هذا الخط شهيداً وقيماً على الناس فيما بعد، ونحن اليوم شهداء في هذا الخط على الناس.

وقوام هذا الخط إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بحبل اللّه... والله تعالى هو مولانا ويتولى أمورنا جميعاً.

وتستوقفنا هذه الكلمة القرآنية العجيبة طويلاً «ملّة أبيكم إبراهيم» أنها ليست بأُبوة نسب، فأية أُبوة هذه التي يذكرها القرآن. إنها أبوة الحضارة الالهية على وجه الارض وأبوة أسرة التوحيد، ونحن اليوم أبناء إبراهيم عليه السّلام وورثته، وميراثنا منه هو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بحبل اللّه.

وشاهد الصدق على وحدة الخط، ووحدة الميراث، ووحدة الحضارة، ووحدة القيم، ووحدة أسرة التوحيد في التاريخ... التصادق الموجود في مراحل الخط المختلفة... فكلّ نبي يأتي يصدق من قبله من الأنبياء، رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم خاتم الانبياء يصدق كل من جاء قبله من الأنبياء والمرسلين من دون استثناء، ومن دون تفريق.

﴿نَزَّلَ عَلَيكَ الكِتَـٰبَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ﴾.(آل عمران:٢)

﴿وقفَّينا علَىٰ ءَاثَـٰرِهِم بِعيسَى ابنِ مَريَمَ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ مِن التَّورَىٰةِ وءَاتَينَـٰهُ الإنجيلَ فيهِ هُدًى ونورٌ ومُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ مِن التَّورَىٰةِ وهُدًى ومَوعِظَةً لِلمُتَّقينَ... وأَنزَلنا إِلَيكَ الكِتَـٰبَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ مِن الكِتَـٰبِ ومُهَيمِناً عَلَيهِ﴾. (المائدة:٤٦،٤٨)

إن هذا التجاوب والتصادق لأطراف مسيرة طويلة عميقة في التاريخ يكشف عن وحدة المسيرة ووحدة المنطلق والغاية فيها.

إن الاحساس بوحدة المسيرة ووحدة أسرة التوحيد يجعل إرتباط الانسان المؤمن بهذه المسيرة وبهذه الاسرة إرتباطاً وثيقاً قوياً، لا يصدر عن العقل فقط، وإنما يصدر عن العقل والعاطفة.

وكلما يقوى إنشداد الانسان بهذا الخط والتراث والاسرة الالهية يكون أقدر على حماية نفسه من الانزلاق في مزالق الهوى والشهوات.

إن إحساسه بالارتباط بأسرة التوحيد، وأنه فرع من هذه الشجرة الباسقة الضاربة في أعماق التاريخ، وليس نبتة طارئة، مجتثة من فوق الارض ما لها من قرار... هذا الاحساس يعطي الانسان كثيراً من الحصانة والمناعة تجاه المغريات والشهوات، يحجبه من مصايد الشيطان وكيده ومن شراك الشجرة الخبيثة في التاريخ التي تحاول أن تلتف على هذه الشجرة الطيبة، وتقتلعها من جذورها.

هدى الله ومعيته للعاملين

إن طريق الدعوة الى الله تعالى طريق عسير صعب، وليس في مسالك الانسان طريق أصعب وأشق منه.

والذين تساقطوا على هذا الطريق أو تخلفوا عنه، أو ضاعوا وتاهوا كثيرون، لم يتمكنوا من مواصلة السّير على الطريق رغم إستقامة الطريق ووضوحه.

والعاملون على هذا الطريق من الدعاة الى الله يتعرضون كثيراً لمتاعب الطريق ومخاطره ومزالقه واكثر ما يحيط العاملين في سبيل الله والدعاة الى الله من مخاطر ومتاعب في هذا الطريق اثنان:

مخاطر الضياع والضلال والتيه.

ومخاطر التعب واليأس والخوف وإيثار العافية وحب الدنيا والتقاعس والتخلف.

وهذان النوعان من المخاطر يحفّان طريق الله والدعاة اليه تعالى، وقلما ينجو أحد ممن يعمل في سبيل الله ويدعو اليه من مثل هذه العوائق النفسية.

ولولا رحمة من الله تعالى...

﴿والَّذينَ جَـٰهَدوا فينا لَنَهديَنَّهم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسِنينَ﴾.(العنكبوت:٦٩)

الذين يجاهدون في سبيل اللّه، ويعطون من أنفسهم وذويهم واموالهم لله تعالى، يعينهم الله تعالى في أمرين:

١- الدلالة والهداية والبصيرة والوعي والفقة والتمييز بين الحق والباطل. وهذه هي المنحة الالهية الاولى، ولولا أن الله تعالى يرزق المجاهدين من عباده، بصيرة في دينهم، وهدى، ووعياً، وفقها في الدين، لتاه من هؤلاء الكثيرون في متاهات الطريق والمسالك.

٢- التثبيت والدعم والتطمين والتأييد. وطريق الدعوة الى الله تعالى محفوفة بكثير من التثبيط، والانسان العامل يواجه على طريق ذات الشوكة هذه العوائق التي تعيق تقدمه كثيراً.

ومن هذه العوائق «الخوف» و «حب الدنيا» و «إيثار العافية والراحة» و«اليأس» و «قصر النظر» في العمل و«الكسل» و«ضعف النفس» و «الشح».

هذه العقبات هي اسباب تخلف الناس وتساقطهم اثناء الطريق... والشيطان يعمل اولاً لتضليل العاملين وإيقاعهم في الغواية والشك والضلال. فاذا تم له تحقيق هذه الغاية فقد حقق كلّ ما يريد، وإن لم يتوفق في ذلك، بدأ بالدور الثاني من مهمته بالقاء اليأس والخوف والضعف وحب الدنيا وإيثار العافية في نفوس العاملين.

واذا قدر للدعاة الى الله النجاة من الشرك الاول للشيطان فان الشيطان يمد

لهم الشرك الثاني في هذه المرحلة، وقليل من العاملين من يستطيع أن يجتاز في هذه المرحلة «عوائق الطريق» ويمضي مستمراً في سيره، متكلاً على الله القوي العزيز.

واذا كان الداعية يحتاج في المرحلة الاولى لاجتياز التضليل والتعميه والتلبيس الى هدى وبصيرة من الله تعالى، فإنه يحتاج في المرحلة الثانية لاجتياز العوائق الى دعم وتثبيت من الله تعالى والى معية الله عزوجل المستمرة له عند كل منعطف ومزلق في الطريق، وألا يكله الله تعالى الى نفسه طرفة عين، فإن الله عزوجل اذا اوكل عبده الى نفسه طرفة عين كان من الهالكين والساقطين.

والى هاتين المنحتين الالهيتين «الهدى والمعيّة الالهية» تشير الآية الكريمة.

﴿والَّذينَ جَـٰهَدوا فينا لَنَهديَنَّهُم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسِنينَ﴾.

عقبات الطريق

وتعميق الأحساس بالوراثة يعين الدعاة الى الله على اجتياز هاتين المرحلتين من عقبات الطريق:

عقبة التضليل والتيه والضياع

وعقبة العوائق النفسية والموضوعية المبثوثة على طريق العاملين في سبيل اللّه.

عقبة الضلال و إنعدام الرؤية

ونبدأ بالعقبة الأولى:

إن الطريق الى الله صراط مستقيم ليس فيه أمت ولا عوج بالتأكيد.

ولكن سلطان الهوى في نفس الأنسان هو الذي يعمي الأنسان عن الحق ويدفع الانسان الى متاهات الضلال والضياع، ويلبس الحق بالباطل والباطل بالحق، ويبعث في نفس الأنسان الشك والريب، ويسلبه اليقين والوضوح.

الهدى والهوى

يقول الشاطبي

«قد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق وعدّه قسيماً له كما في قوله تعالى:

﴿ يَا داوُدُ إنَّا جَعَلنَاكَ خليفَةً في الأرضِ فَاحكُمْ بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَىٰ فيُضِلَّكَ عن سَبيلِ اللّهِ...﴾ الاية.

وقال في قسيمه **﴿وأمَّا مَن خافَ مَقامَ رَبِّه ونَهَى النَّفسَ عَنِ الهَوَىٰ*فإنَّ الجَنَّةَ هيَ المَأوَىٰ﴾**.

وقال: **﴿وما يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ*إن هو إلاَّ وَحيٌ يوحَىٰ﴾**.

فقد حصر الامر في شيئين: الوحي وهو الشريعة والهوى، فلا ثالث لهما.

واذا كان الامر كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي: توجه للهوى ضده فاتباع الهوى مضاد للحق.،

وقال تعالى **﴿أفَرَأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَـٰهَهُ هَوَيٰهُ وأضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلمٍ﴾**.

وقال **﴿أولٰئِكَ الَّذينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلوبِهِم واتَّبَعوا أهواءَهُم﴾**.

وقال **﴿أفَمَن كان عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ له سوءُ عَمَلِه واتَّبَعوا أهواءَهُم﴾**.

فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى.[1]

وعندما يلتبس الامر على الأنسان بسبب الهوى فليس افضل من أن يستهدي الأنسان بهدي من سبقه من الأنبياء والصديقين على هذا الطريق الطويل، فان الشيطان يتربص بالأنسان الدوائر عند كل منعطف من منعطفات الطريق ليضلله وليدفعه عن الصراط المستقيم الى متاهات الطريق.

فاذا مشى الانسان لوحده على هذا الطريق لا يأمن الشيطان والهوى ولكن عندما يضع خطاه على مواضع خطى الأنبياء والمرسلين، ويربط نفسه بهذه المسيرة الربانية في التاريخ ينجو من وساوس الشيطان واغراء الهوى، فلا ينالان

(١) سفينة البحار للشيخ عباس القمي مادة قوم٢/ ٥٥ .

منه شيئاً، ولا يصيبانه بسوء.

فقد يلتبس امر الطريق على الانسان اذا كان يسير وحده، اما حينما يشعر أنه يقتدي بهدي الأنبياء، ويسير على طريقهم. . . يضع خطاه بثقة واطمئنان على طريق ذات الشوكة.

فقد أُخطىء أنا الطريق لوحدي ولكن لا يمكن أن يُخطىء الطريق هذا الحشد الهائل والمسير الطويل من الصفوة الصالحة من عباد الله من الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء فهم المعالم على الطريق وعندما تحتف الطريق بمثل هذه المعالم والاشارات فلا يمكن أن يضيع الانسان او يلتبس عليه الامر.

ولامر ما اذا دعونا الله تعالى في الصلاة أن يرزقنا الهداية الى الصراط المستقيم «اهدنا الصراط المستقيم» نعقب ذلك مباشرة بتشخيص الصراط المستقيم تشخيصاً عينياً خارجاً، فهؤلاء الذين أنعم الله عليهم من عباده الصالحين ولم يغضب عليهم ولم يضلوا:

﴿صِراطَ الَّذينَ أنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضوبِ عَلَيهِم ولا الضَّالينَ﴾.

وفي سورة الأنعام بعد ما تستعرض السورة المباركة ذكر عدد من الأنبياء عليهم السّلام منذ عهد إبراهيم ابي الأنبياء سلام الله عليه الى رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم. . . يخاطب الله تعالى نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله:

﴿. . .أولٰئِك الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَٰيهُمُ اقتَدِهْ﴾.(الأنعام:٩٥)

العقبة الثانية «العوائق»

ولا تقِل خطورة العقبة الثانية عن العقبة الاولى، ولا تقل ضحاياها عنها.

إن قضية هذه العقبة هي العوائق التي تعيق حركة العاملين وتسبب لهم التخلف عن الحركة والتساقط اثناء الطريق.

وهذه العوائق على قسمين منها عوائق موضوعية مبثوثة على الطريق.

ومنها عوائق ذاتية كامنه في نفوس الناس، وكلتاهما تعيقان حركة العاملين في سبيل الله واذا التقتا كان تأثيرهما تأثيراً قوياً بالغاً في نفوس العاملين.

فمن العوائق الموضوعية طول الطريق، وبعد الشقة، والمتاعب التي يحفل بها هذا الطريق من البأساء والضراء.

والدعاة الى الله يعجبهم أن يكون الطريق قصيراً مريحاً، آمناً من المخاوف والاخطار، ولكن الله تعالى يريد لعباده أن يسلكوا اليه طريق ذات الشوكة.

﴿وتَوَدُّونَ أنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونُ لَكُم ويُريدُ اللهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِ ويَقطَعَ دابِرَ الكَـٰفِرينَ﴾.(الأنفال:٧)

فالطريق الى الله اذا كان قصيراً مريحاً، آمناً، سهلاً، لن يحقق الحق، ولن يقطع دابر الكافرين ولن تتم السيادة والسلطان لدين الله على وجه الارض الا حينما يسلك الدعاة طريق ذات الشوكة الى الله.

وليست هذه البأساء والضراء خاصة بهذه الامة، فهي سنة الله في حياة العاملين جميعاً، لم يشذ منهم احد عن هذه السنة الالهية الصعبة.

﴿أم حَسِبتُم أن تَدخُلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأتِكُم مَثَلُ الَّذينَ خَلَوْا مِن قَبلِكم مَسَّتهُمُ البَأْساءُ والضَّرَّاءُ﴾.(البقرة:٢١٤)

ولو كان امر هذا الطريق يسيراً، والمسافة قريبة لم يتخلف عن الطريق أحد من الناس، ولكن طول المسافة، وبعد الشقة، جعل الناس يتفرقون من حول الدعوة، ويتخلفون عن المسيرة.

﴿لَو كان عَرَضاً قَريباً وسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعوكَ ولٰكِنْ بَعُدَت علَيهِمُ الشُّقَّةُ﴾.(التوبة:٤٢)

... وهناك عوائق ذاتية في داخل النفوس، وهي اخطر بكثير واكثر بكثير من العوائق الموضوعية القائمة على الطريق.

ومن خصائص هذه العوائق أنها تختفي ساعات اليسر وتبرز ساعات العسر والشدة، ولنقرأ هذه الايات المباركات من سورة الاحزاب من العوائق الكامنة في نفوس المؤمنين والتي تبرز في ساعات الشدة ولحظات العسر:

﴿... أُذكُروا نِعمَةَ اللهِ عَلَيكُم إذ جاءَتكُم جُنودٌ فَأرسَلنا عَلَيهِم ريحاً وجُنوداً لَم تَرَوها وكانَ اللهُ بما تَعمَلونَ بَصيراً*إذ جاءُوكم مِن فَوقِكم ومِن

أَسفَلَ مِنكُم وإذ زاغَتِ الأبصَارُ وبَلَغَتِ القُلوبُ الحَناجِرَ وتَظُنّونَ بِاللهِ الظُّنونَا۠*هُنالِكَ ابتُلِيَ المؤمِنونَ وزُلزِلوا زِلزالاً شَديداً﴾.(الاحزاب:٩-١١)

وفي نفس السياق:

﴿قد يَعلَمُ اللهُ المُعَوِّقينَ مِنكُم والقائِلينَ لإخوانِهِم هَلُمَّ إلَينا ولا يأتونَ البَأسَ إلاَّ قَليلاً*أَشِحَّةً عَلَيكُم فَإذا جاءَ الخَوفُ رَأَيتَهُم يَنظُرونَ إلَيكَ تَدورُ أعيُنُهُم كَالَّذي يُغشَىٰ عَلَيهِ مِنَ المَوتِ فَإذا ذَهَبَ الخَوفُ سَلَقوكُم بِألسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيرِ أولٰئِكَ لم يُؤمِنوا فَأحبَطَ اللهُ أعمَـٰلَهُم وكانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسيراً﴾.(الاحزاب:١٨-١٩)

ولا تخص هذه العوائق ونقاط الضعف نفوس المنافقين والصغار من المؤمنين فقط، وانما تشمل المؤمنين الذين امتحن الله قلوبهم للايمان احياناً.

فقد اثرت نكسة أحد في نفوس المؤمنين الاشداء الذين امتحن الله قلوبهم ونصرهم الله ببدر. . . الا القليل منهم، الذين ثبتت نفوسهم في نكسة أحد ولم يضعفوا ولم يتزلزلوا، وعن هؤلاء يقول تعالى بعد معركة أحد:

﴿ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنينَ*إن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وتِلك الأيَّامُ نُداوِلُها بَينَ النَّاسِ ولِيَعلَمَ اللهُ الَّذين ءَامَنوا ويَتَّخِذَ مِنكُم شُهَداءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّـٰلِمينَ﴾.(آل عمران:١٣٩-١٤٠)

وهذه بعض الامثلة والشواهد من نقاط الضعف والعوائق الكامنة في نفوس الناس، والتي تختفي ساعات اليسر والاقبال وتبرز بروزاً قوياً ساعات العسر والشدة.

وإن هذه العوائق لتحيط الدعاة الى اللّه، تعيق سيرهم، وتدفعهم الى صفوف المتخلفين والمنافقين والضعفاء ولابد للدعاة من أن يروضوا أنفسهم كثيراً لاجتياز هذه العوائق ما كان منها على الطريق، أو في داخل نفوسهم، وأن يدعوا الله تعالى ليمدهم من عنده بقوة وصبر وثبات، يستطيعون به أن يواجهوا هذه العقبات والفتن على طريق ذات الشوكة.

﴿ولَمَّا بَرَزوا لِجالوتَ وجُنودِهِ قالوا رَبَّنا أَفرِغ عَلَينا صَبراً وثَبِّت أقدامَنا

وانصُرنا عَلَى القَومِ الكَـٰفِرينَ﴾.(البقرة:٢٥٠)

كيف نكافح الخوف والضعف

وتعميق الاحساس بوراثة الأنبياء والصديقين. يمنح الانسان مثل هذا الثبات والثقة والقوة لمواجهة التحديات والنكسات التي تحدث احياناً في صفوف المؤمنين، ويحول دون أن تتحول النكسة الى هزيمة نفسية. وهذا اجمال لابد له من تفصيل واشارة لابد لها من تحديد وتشخيص، واليك هذا التفصيل:

١- قد تثير قوة العدو وضخامة امكاناته وكثرة عدده وضعف امكانات القلة المؤمنة احساساً بالضعف والنقص في نفوس المؤمنين، ولكن الامر يختلف كثيراً عندما ينظر المؤمنون الى أنفسهم من خلال موقعهم الحضاري من التاريخ، ويعرفون أنهم جزء لا يتجزء من هذه المسيرة الربانية الممتدة على امتداد التاريخ كله فإن هذا الخط هو الدين القيم الذي قوّم مسيرة البشرية وحركة التاريخ منذ اليوم الاول الى اليوم الحاضر.

ولم يزل هذا الخط منذ نشأته في عمق الفطرة البشرية الى أن تولاه أنبياء الله بالرعاية قائماً في حياة البشرية، وقيماً على حياة الانسان وسلوكه وتاريخه.

وليست المعاناة والعذاب والتشريد والتهجير والقتل والضغينة... التي يجدها الداعية في حياته الرساليه من جانب أئمة الكفر واتباعهم شيئاً جديداً في حياتهم... بل هي جزء من ميراثهم الضخم الذي يرثونه كابراً عن كابر.

ومن هذا التراث الكبير يجد المؤمن دعماً وسنداً روحياً يخرجه عن الشعور بالوحشة والانفراد والضعف ويجد في معاناة سلفه الذين سبقوه في الايمان والدعوة عزاء وسلوة، ويرى فيهم قدوة صالحة لنفسه.

كل ذلك يبعث في نفوس المؤمنين العاملين الاحساس بالقوة والعمق والامتداد ويشعرهم بالعزاء والسلوى فيما يلقونه من عذاب. ويشعرهم بتأييد الله تعالى للمسيرة كلها.

رحلة الدعوة والمعاناة في سورة هود:

وسورة هود سورة عجيبة في هـذا المضمار ولقد وددت أن أتلو السورة كلها على القراء.

ففي هذه السورة ينعكس خـط الدعوة الي الله **﴿ألاَّ تَعبُدوا إلاَّ اللهَ إنَّنـي لكم مِنهُ نَذيرٌ وبَشيرٌ*وأنِ استَغفِروا رَبَّكم﴾** مما يعكس خط الاعراض والجحود.

﴿ألا إنَّهم يَثنونَ صُدورَهم لِيَستَخْفوا مِنهُ﴾.

ثم تبين السورة المبـاركة استدراج الله تعالى لهؤلاد المعـرضين والمشركين وامهالهم وتمـاديهم في غيهم وطغيـانهم **﴿ولَئن أخَّـرنا عَنهُمُ العَذابَ إلـىٰ أُمَّةٍ مَعدُودَةٍ لَيَقولُنَّ مـا يَحبِسُه ألا يَومَ يَأتيهِم لَيسَ مَصروفاً عَنهـم وحاقَ بِهِم ما كانوا بِه يَستَهزِءُونَ﴾.**

ولعل صدر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يضيق وسـط هذا الاعراض والطغيان وتمادي القوم في غيهم وضلالهم.

﴿فلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعضَ ما يوحَىٰ إلَيكَ وضـائِقٌ به صَدرُكَ...﴾ لولا أن الله تعالى يذكر نبيـه أن هؤلاء على كثرة عددهم وقوتهم وطغيانهـم لم يكونوا ليعجزوا الله تعالى... وأن الله ان امهلهم استـدراجاً لهم فلن ينساهم، ولـن يفلتوا من قبضة قدرته وسلطانه تعالى **﴿أولٰئِك لم يَكونوا مُعجِزيـنَ في الأرضِ وما كانَ لَهم مِن دونِ اللهِ مِن أَولِياءَ يُضـٰعَفُ لَهُمُ العَذابُ﴾.**

ثم تـرسم السـورة المباركـة صورة حيـة لهذيـن الامتداديـن والمعسكريـن الحضارة الالهية والحضارة الجاهلية: **﴿مَثَلُ الفَريقَينِ كَالأعمَىٰ والأَصَمِّ والبَصيرِ والسَّميعِ هَل يَستَويانِ مَثَلاً﴾.**

فمهما كثر عددهـم وزادت قوتهم فلا يزيدون على أن يكونـوا كتلة مهملة من العمى والصـم في مسـار التاريـخ وأن الجبهة الاخـرى هي الجبهـة الواعيـة ذات الاحساس والادراك «السمـع والبصر» ومهما كانـت قوة هذه الكتلة وحجمهـا فلن

يكون لها شأن ولن يكون لها قيمة في مضمار التاريخ.

ثم تبدأ السورة باستعراض المسيرة الالهية الكبيرة في التاريخ في مقاطع متعددة وبشيء من التفصيل، وما لاقاه أنبياء الله ورسله خلال هذه المسيرة من عناء وعذاب وجحود وتكذيب واستهزاء من اقوامهم.

فتذكر السورة معاناة نوح عليه السّلام في دعوة قومه الى اللّه، وتذكر السورة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

بمعاناة هود عليه السّلام في دعوة «عاد»

بمعاناة صالح عليه السّلام في دعوة «ثمود»

بمعاناة ابرهيم عليه السّلام في دعوة قومه

ومعاناة لوط ومعاناة شعيب عليه السّلام في دعوة «اهل مدين» الى الله ومعاناة موسى عليه السّلام في دعوة قومه الى الله وتسترسل الآيات المباركة في شرح هذه المعاناة ورسمها.

ثم بعد هذه الجولة في تاريخ الانسان وحضارته ومعاناة الانبياء وعذابهم وعناد المشركين ورفضهم وتعنتهم ولجاجهم وصبر الأنبياء وجلدهم واستقامتهم.

تخاطب السورة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، الذي قد كان يضيق صدره بما يراه من تعنت قومه وعنادهم قوله تعالى:

﴿فَاستَقِم كَما أُمِرتَ ومَن تابَ مَعَك ولا تَطغَوْا إنَّه بِما تَعمَلون بَصيرٌ﴾.

وتحذر الاية الكريمة المسلمين من أن يمسهم ضعف في خضم الصراع ومرارته الى الذين ظلموا فتقول لهم:

﴿ولا تَركَنوا إلَى الَّذينَ ظَلَموا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ وما لَكم مِن دونِ اللهِ مِن أَولياءَ ثُمَّ لا تُنصَرونَ﴾.

يقول ابن عباس: ما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم آية كانت اشد عليه، ولا اشقّ من قوله تعالى: ﴿فَاستَقِم كَما أُمِرتَ﴾ ولذلك قال لاصحابه حين قالوا له:

«اسرع اليك الشيب يارسول اللّه» قال: «شيبتني هود والواقعة».(١)

ثم يعلّم الله تعالى نبيه أمرين يشـدان ازره ويربطان على قلبه، ويثبتان فؤاده في هذه المسيرة الصعبة الشائكة وهما:

الصلاة والصبر

وما ادراك ما الصلاة والصبـر؟ الصلاة في آناء الليل واطراف النهـار والدعاء والتضرع الـى الله ومواصلـة ذكر الله تعالـى والصبر في الغـرائب وعلى البـأساء والضراء.

﴿أَقِمِ الصَّلوٰةَ طَرَفَي النَّهَـٰرِ وزُلَفاً مِـنَ الَّيلِ إنَّ الحَسَنـاتِ يُذهِبنَ السَّيِّئاتِ ذٰلِك ذِكرَىٰ لِلذَّاكِرينَ*وَاصبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيـعُ أجرَ المُحسِنينَ﴾.

وقـد ذكر القـرآن الكريـم المؤمنيـن والدعـاة الى الله فـي أكثر مـن موضـع بالاستعانة بالصبر والصلاة في اجتياز العقبات ومجابهة التحديات.

﴿واستَعينوا بِالصَّبرِ والصَّلوٰةِ﴾.(البقرة:٤٥)

﴿استَعينوا بِالصَّبرِ والصَّلوٰةِ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّـٰبِرينَ﴾.(البقرة:١٥٣)

ثم تأتي بعد هذه الجولة الرسالية فـي تاريخ الدعوة ومسارها الطويل الشاق هذه الآية العجيبة التي تبين لنا السـرّ في تذكير رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم في خضم الصراع والمعاناة بهذا التاريخ الطويل المليء بالمعاناة والعذاب.

إن السر في هذا الاستعرض الطويـل هو تثبيت قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في معاناته الشاقة بـاطراف من قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السّلام **﴿وكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيك مِن أَنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فُؤَادَك وجاءَك في هَـٰذِه الحَقُّ ومَوعِظَةٌ وذِكرَىٰ لِلمُؤمِنينَ﴾**.

وأن رسول اللّه صلّى الله عليه وآلـه وسلّم ليجد في استقامة الأنبيـاء وصبرهم على

(١) بحار الانوار٥٢/ ٣٣٦ح ٧١.

المحنة قوة وثباتاً في فؤاده على المضي في الصراع المصيري، ويجد في معاناة الانبياء عليهم السّلام عزاء وسلوة.

واذا كان التذكير بالمسيرة التاريخية الواحدة للدعوة الى الله وتعميق الاحساس بوحدة الخط والميراث يثبت فؤاد رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم في خضم معركة الدعوة، وهو الذي شرح الله صدره وثبت فؤاده. . . فاحرى بنا نحن الدعاة الى الله تعالى أن نستوحي من هذه المسيرة الالهية الثبات والعزم والثقة بالنصر والطمأنينة والقدرة على مواجهة التحديات والغرائب والمحن، وأن نتلمس في هذه المسيرة الربانية الضاربة في أعماق التاريخ. . . اعماقنا الحضارية ومن هذه الصفوة الصالحة المنتجبة من عباد اللّه. . . أصولنا وجذورنا وأسرتنا التي ننتمي اليها.

نماذج أخرى من رحلة العذاب والمعاناة

وإن شئت أن تسترسل في هذا الهدي الالهي، وترى كيف يثبت الله تعالى فؤاد نبيه بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين للمتعبين بعد طول العناء وطول المعاناة وبما لاقوه من عناء وعذاب واضطهاد فاتلُ معي هذه الآيات المباركات:

﴿وإن يُكَذِّبوكَ فَقَد كَذَّبَت قَبلَهُم قَومُ نوحٍ وعادٌ وثَمودُ*وقَومُ إبراهيمَ وقَومُ لوطٍ*وأصحابُ مَديَنَ وكُذِّبَ موسَىٰ فَأملَيتُ لِلكَـٰفِرينَ ثُمَّ أخَذتُهُم فَكَيفَ كانَ نَكيرِ﴾.(الحج:٤٢-٤٥)

﴿ولَقَدِ استُهزِئَ*بِرُسُلٍ مِن قَبلِكَ فَأملَيتُ لِلَّذينَ كَفَروا ثُمَّ أخَذتُهُم فَكَيفَ كانَ عِقابِ﴾.(الرعد:٣٢)

﴿ولَقَدِ استُهزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبلِكَ فَحاقَ بِالَّذينَ سَخِروا مِنهُم ما كانوا بِهِ يَستَهزِءُونَ﴾.(الأنبياء:٤١)

﴿وإن يُكَذِّبوكَ فَقَد كُذِّبَت رُسُلٌ مِن قَبلِكَ وإلَى اللهِ تُرجَعُ الأُمورُ﴾.(فاطر:٤)

٢- وتعميق الاحساس بالوراثة في نفس الداعية يمكن من فهم سنن الله تعالى

وقوانينه في مسيرة الحضارة الانسانية.

ذلك أن الداعية ينظر الى المسيرة ليس من خلال عناء الساعة وابتلاءات الطريق، وإنما ينظر اليها من خلال استعراض مسيرة الحضارات الطويل في التاريخ.

وتاريخ هذا الصراع بين الخط الرباني والخطوط الجاهلية وما آل اليه هذا الصراع بين الحق والباطل، إن الداعية الذي ينظر الى التاريخ بهذه الرؤية الشاملة العميقة يستطيع أن ينظر الى مسيرة المعاناة والعمل والدعوة نظرة شمولية واسعة ويكشف السنن والقوانين الالهية في مسير الحضارة، ويقضي في امر المسيرة لا من خلال معاناة اللحظة، وإنما من خلال النتائج والعواقب.

اسلوبان في الرؤية

والانسان ينظر الى المسيرة على نحوين:

فقد ينظر الى المسيرة من خلال المعاناة والآلام والمتاعب التي تكشف الطريق. . . وهذه هي النظرة القصيرة والرؤية المحدودة، للطريق التي لا تتجاوز اللحظة والساعة وهي رؤية محفوفة الاخطار ولا يسلم صاحبها كثيراً من السقوط، ولا ينجو من الخوف واليأس والتعب في اغلب الاحوال.

فإن الذي ينظر الى المسيرة، ويقضي فيها من خلال معاناة العمل ومتاعبه وآلامه، يسرع الى نفسه اليأس والخوف والتعب ومن يدخله التعب واليأس والخوف لا يستطيع أن يواصل المسيرة، ويتخلف أو يسقط أثناء الطريق، إن عاجلاً أو آجلاً.

وقد ينظر الى المسيرة من خلال النتائج والعواقب وهذه هي الرؤية الصحيحة للمسيرة، ونحن نلتقى في القرآن هذه الرؤية التي تمكننا من تجاوز سلبيات المعاناة والمرور بها في طريق العمل دون أن يصيبنا الخوف أو اليأس أو التعب ودون أن يشق علينا بعد الشقة.

فإن القرآن يحرص على النظر الى معاناة الطريق وعذابها من خلال العواقب والنتائج وليس من خلال المعاناة نفسها ساعة المعاناة والمواجهة والعمل.

وفيما يلي نتلو عليكم طرفاً من آيات القرآن التي تحرص أن تعلمنا اسلوب الرؤية الصحيح الى المعاناة لاستيعابها وامتصاصها يقول تعالى:

﴿فلا تَهِنوا وتَدعُوا إلَى السَّلمِ وأنتُمُ الأعلَونَ واللهُ مَعَكم ولَن يَترَكُم أعمَـٰلَكُم﴾.(محمد:٣٥)

﴿ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنينَ﴾.(آل عمران:١٣٩)

﴿قل يَـٰقَومِ اعمَلوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُم إنِّي عَـٰمِلٌ فَسَوفَ تَعلَمونَ مَن تَكونُ له عَـٰقِبَةُ الدَّارِ إنَّه لا يُفلِحُ الظَّـٰلِمونَ﴾.(الانعام:١٣٥)

﴿ولَقَد كَتَبنا في الزَّبورِ مِن بَعدِ الذِّكرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّـٰلِحونَ*إنَّ في هَـٰذا لَبَلاغاً لِقَومٍ عَـٰبِدينَ﴾. (الأنبياء:١٠٥)

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذينَ ءَامَنوا مِنكُم وعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم في الأرضِ كَمَا استَخلَفَ الَّذينَ مِن قَبلِهِم ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُم ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعدِ خَوفِهِم أَمناً يَعبُدونَني لا يُشرِكونَ بي شَيئاً﴾.(النور:٥٥)

﴿ولَقَد سَبَقَت كَلِمَتُنا لِعِبادِنا المُرسَلينَ*إنَّهُم لَهُمُ المَنصورونَ*وَإنَّ جُندَنا لَهُمُ الغَـٰلِبونَ﴾.(الصافات:١٧١)

والذين يرزقهم الله هذا النهج من الرؤية البعيدة والنافذة يمكنهم الله من النظر الى الاحداث التاريخية لمسيرة الانسان، نظرة شاملة غير محدودة، ويمكنهم من استنباط قوانين وسنن هذه المسيرة ومعرفة مواضع النصر والهزيمة في هذه المسيرة.

اولئك يطمئنون الى حتمية النصر، ولا يساورهم في ذلك شك لحظة واحدة، وحتى في احرج الساعات واحلك الظروف واشد الابتلاءات لا يمس الريب نفوسهم ولا ينال من ثقتهم ويقينهم بحتمية النصر الالهي وأن العاقبة للمتقين.

وهؤلاء هم الذين يستطيعون أن يتجاوزوا الحاضر المليء بالمعاناة الى

المستقبل المليء بالامـل، ان نظرة الداعية الى المسيرة نظرة ثاقبـة نفاذة تنفذ من معانـاة الحاضر الـى آفاق المستقبل، لا تحجبهـا معانـاة الحال عن رؤيـة النصر الالهي للقلة المؤمنة على وجه الارض، وكما كانت الرؤية البشرية المحدودة المدى للمسيرة تورث صـاحبها الضعف والخوف واليـأس والعجز عن مواصلـة الطريق فإن الرؤية الثاقبة البعيدة المدى التي يتمتع بها الداعية تمكنه من مواصلة الطريق وتمنحه الثقـة والطمأنينـة والقوة والشجاعـة والامل، وتنتـزع من نفســه الخوف واليأس.

وهذه هي خاصية الرؤية عندما تتجاوز المعاناة الى السنن والقوانين الالهية في الحضارة والتاريخ.

إن الفلاح لو كـان ينظر الى عمله مـن خلال معاناة الحـرث والغرس والسقي لترك المزرعة ومضى الـى شأنه. . . ولكنه عندما ينظر الى هـذا الجهد الشاق الذي يبذله فـي المزرعة من خلال سنـن الله تعالى. . . يمضي فـي عمله دون أن يكل أو يمسه تعب أو لغوب.

ولنعد الــى القرآن من جديـد فانه معين لا ينضـب للدعاة الى اللّـه، إن القرآن الكريم يرســم هذه المسيرة الشاقة للدعـوة الى اللّه، الساحة حاميـة بالصراع بين الحق والباطل ولكن لا مـن خلال معاناة العاملين، وإنما من خـلال سنن الله تعالى في التـاريخ، فـي حتمية النصـر للفئة المـؤمنة، حتميـة الهلاك والسقـوط لجبهة الشرك.

وإن القرآن ليحرص على أن يحول نظر الداعيــة من الحال الى المستقبل ومن المعاناة الى سنن اللّه.

وذلك مـن خلال استعراض مسيرة التـوحيد والشرك، واستعراض ســاحات الصراع بين هاتين الجبهتين ولنستمع الى كلام الله تعالى:

﴿إنَّـا لَنَنصُرُ رُسُلَنـا والَّـذيـنَ ءَامَنوا فــي الحَيـوٰةِ الـدُّنيا ويَـومَ يَقـومُ الأَشهَـٰدُ﴾.(غافر:٥١)

اجل ليس نصراً فقط يوم يقوم الاشهاد وإنما في الحياة الدنيا ايضاً.

﴿أفَلَم يَسيروا في الأرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كانَ عَـٰقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبلِهِم كانوا أكثَرَ مِنهُم وأشَدَّ قُوَّةً وءَاثَـٰراً في الأرضِ فَما أغنَىٰ عَنهُم ما كانوا يَكسِبونَ﴾.

﴿فلَمَّا جاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّنَـٰتِ فَرِحوا بِما عِندَهُم مِنَ العِلمِ وحاقَ بِهِم ما كانوا بِهِ يَستَهزِءُونَ*فلَمَّا رَأَوا بَأسَنا قالوا ءَامَنَّا باللهِ وَحدَهُ وكَفَرنا بِما كُنَّا بِهِ مُشرِكينَ*فَلَم يَكُ يَنفَعُهُم إيمَـٰنُهُم لَمَّا رَأَوا بَأسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتي قَد خَلَت في عِبادِهِ وخَسِرَ هُنالِكَ الكَـٰفِرونَ﴾.(غافر:٨٢–٨٥)

تـرى كيف يستعـرض القـرآن مسيرة الشـرك والظلـم استعـراضاً واسعـاً، ويطويهـا طياً سريعاً، ويعلـن بان عاقبتهم كـان الخسران والهلاك، وحاق بهـم ما كانوا به يستهزؤون، وان هذه العاقبة لـم تكن عن عجز أو ضعف مادي منهم، فقد كانوا اشد من مشركي عصر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قوة وآثاراً في –الارض– ومع ذلك فلم تغن عنهم قوتهم شيئاً وادركهم العذاب والهلاك.

ثم يعلـن القرآن أن ذلك لم يكـن عن صدفة، ولـم يحدث عفواً، وإنما هـو سنة ثابتة لله تعالى في الذين كفـروا وعتوا عن امر ربهم جميعاً من دون استثناء **﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتي قد خَلَت في عِبادِهِ وخَسِرَ هُنالِكَ الكَـٰفِرونَ﴾**، ثم استمع الى هذه الآيات المباركات من سورة فاطر:

﴿وأَقسَموا بِاللهِ جَهدَ أَيمَـٰنِهِم لَئِن جاءَهُم نَذيرٌ لَيَكونُنَّ أهدَىٰ مِن إحدَى الأمَمِ فلَمَّا جاءَهُم نَذيرٌ ما زادَهُم إلَّا نُفوراً*إستِكباراً في الأرضِ ومَكرَ السَّيِّئِ ولا يَحيقُ المَكرُ السَّيِّئُ إلَّا بِأهلِهِ فَهَل يَنظُرونَ إلَّا سُنَّتَ الأوَّلينَ فلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبديلاً ولَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحويلاً*أوَلَم يَسيروا في الأرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كانَ عَـٰقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبلِهِم وكانوا أشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وما كانَ اللهُ لِيُعجِزَهُ مِن شَيءٍ في السَّمَـٰوٰتِ ولا في الأرضِ إنَّه كانَ عَليماً قَديراً﴾.(فاطر:٤٢–٤٤)

إنهـم نفـروا من الانبيـاء نفـوراً لمـا جـاؤوهـم استكباراً فـي الارض ومكـر السيء. . ثم يبين القرآن بعد ذلك مباشرة السنة الالهية القائمة في الذين يمكرون

مكر السوء ﴿**إستِكبـاراً في الأرضِ ومَكـرَ السَّيِّئُ ولا يَحيـقُ المَكرُ السَّيِّـئُ إلاَّ بِأَهلِهِ**﴾ ثم يربط القرآن بعد ذلك هذه المسيرة التي تبدأ بالاستكبار والمكر وتنتهي بالمحق والهـلاك. . . بسنن الله تعالى، في تكـرار وتأكيد حتى لا يتصـور أحد من الطغاة والمتمردين أن اولئك لو حاق بهم مكـر السوء فمن الممكن أنه ينفلت هو من دائرة السوء هذه التي تحيط بالظالمين:

«فهل ينظرون الا سنة الاولين

فلن تجد لسنة الله تبديلاً

ولن تجد لسنة الله تحويلاً»

ثم تأتي بعد هـذه التأكيدات الثلاثة المتوالية على حـاكمية السنن الالهية في حياة الانسان وتاريخه. . .

دعوة اخـرى لاستعراض تـاريخ ومسيـرة الجاهليـة المتمردة علـى حكم الله وشريعته:

﴿**أوَلَم يَسيـروا في الأرضِ فَيَنظُـروا كَيفَ كـانَ عَـٰقِبَةُ الَّـذينَ مِـن قَبلِهِم وكانــوا أشَدَّ مِنهُـم قُوَّةً وما كـانَ اللهُ لِيُعجِزَه مِن شَـيءٍ في السَّمَـٰوٰتِ ولا في الأرضِ**﴾.

ثم استمع الى هذه الآيات المباركات من سورة ق:

﴿**وكَم أهلَكنا قَبلَهُم مِن قَرنٍ هُم أشَدَّ مِنهُـم بَطشاً فَنَقَّبوا في البِلَـٰدِ هَل مِن مَحيصٍ*إنَّ في ذٰلِك لَذِكرَىٰ لِمَن كانَ لَـه قَلبٌ أَو أَلقَى السَّمعَ وهوَ شَهيدٌ*ولَقَد خَلقنَا السَّمٰوٰتِ والأرضَ وما بَينَهُما في سِتَّةِ أيَّام وما مَسَّنا مِن لُغوبٍ*فَاصبِرْ عَلىٰ ما يَقولونَ وسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقَبلَ الغُروبِ*ومِنَ الَّيلِ فَسَبِّحْهُ وأَدبَـٰرَ السُّجودِ**﴾.(ق:٣٦-٤٠)

وهو مشهـد عجيب تقتـرن السنن الالهية فـي التاريـخ والحضارة بـالسنن الالهية في الكون، وتمتزج فيه السنن الالهية في الكون بسنن الله في المجتمع.

ومن خلال هذه الرؤيـة الشاملة الحضارية الكونية لسنن الله تعـالى يدعو الله

تعـالى نبيـه لمواصلـة الطريـق، والاستمرار والثبـات، ويعلمه امـرين، سبـق ان ذكرناهما من قبل وهما الصبر والصلاة.

﴿فَاصبِـرْ عَلىٰ ما يَقـولونَ وسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّـكَ قَبلَ طُلوعِ الشَّمـسِ وقَبلَ الغُروبِ﴾.

ومن عجـب ان الامر بالصبـر والصلاة يتكرر كثيراً عبـر ذكر الدعـوة الى الله تعالى وما واجه الدعاة الى الله من متاعب وعناء في الطريق.

الصبر علـى تحمل سنـن اللّه، وعـدم استعجال الامـور قبل أوانهـا، واللجوء والتضرع الـى اللّه «الصـلاة» ليسد مـا في نفوسنـا من عجـز ونقص فـي الصبر والاستقامة.

المعاناة سنة الهية لكل اطراف الصراع

والقرآن عندمـا يمد نظر الداعية الـى البعيد، لينفذ من الحاضـر الى المستقبل ومن المعاناة الى آفاق الامل. . . لا يريد أن يفصلـه فصـلاً كاملاً عن لحظة المعاناة، وإنما يوجّه تصور الداعية وحمله للحظة المعـاناة على طريق ذات الشوكة حتى لا تستغرقه المعاناة عن معايشة سنن الله والنظر الى مستقبل الدعوة وعاقبتها.

فيوجـه نظره اولاً الى أن هـذه المعاناة حقيقـة قائمة وامـر واقع في كـل من المعسكرين، من دون استثناء، وليست هي مـن خصائص مسيرة الدعوة الى اللّه، وانما المعاناة تشمل المعسكرين جميعاً.

فما دام هناك صراع فهناك معاناة والعناء يتوزع على طرفي الصراع، من دون فرق، وليس لاحد من الطرفين حصانة من المعاناة.

﴿ولا تَهِنوا فِي ابْتِغاءِ القَومِ إن تَكونوا تَألَمونَ فَإنَّهُم يَألَمونَ كَما تَألَمونَ وتَرجونَ مِنَ اللهِ ما لا يَرجونَ﴾.(النساء:١٠٤)

﴿ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنينَ*إن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَـسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وتِلـكَ الأيَّامُ نُداوِلُهـا بَينَ النَّاسِ ولِيَعلَمَ اللهُ الَّـذينَ

ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُم شُهَدَاءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّـٰلِمِينَ﴾.(آل عمران:١٣٩-١٤٠)

فإن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وإن يكن قد اصابكم قرح فقد اصاب القوم مثله، وتلك ضريبة الصراع والحرب، . . .وهذه الضريبة تتوزع على كل الاطراف من دون استثناء.

واولئك ينفقون كما تنفقون أنتم، فلابد في الصراع من إنفاق للأموال والبنين والأنفس، ولا يخصكم هذا الانفاق. الا أن هذا الانفاق يعود عليكم بنصر الله في الدنيا وبرحمته الواسعة يوم يقوم الاشهاد، ولا يعود عليهم الا بالحسرة والخيبة.

﴿إنَّ الَّذينَ كَفَروا يُنفِقونَ أموالَهُم لِيَصُدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ فَسَيُنفِقونَها ثُمَّ تُكونُ عَلَيهِم حَسرَةً ثُمَّ يُغلَبونَ﴾.(الانفال:٣٦)

التمحيص والتكامل بالمعاناة

وهذا أولاً. . .

ويوجه القرآن نظرنا ثانياً الى أن المعاناة هي الاداة التي تتكامل بها شخصية المؤمنين، ويصلب عودهم، وتعلو بها كلمة الله على وجه الارض وفي حياة الانسان. وعبر هذه الآلام والمتاعب والاشواك تعود الحاكمية على وجه الارض لله ولرسوله ولأوليائه.

إن مسيرة المحنة هي مسيرة تكامل الانسان ونموه، وهي مسيرة تكامل الامة ونموها. وإن الانسان ليحب -اذا ارجع اليه امر الاختيار- الطريق غير ذات الشوكة، والعبور من الممرات والطرق الآمنة المحفوفة بالعافية في طريقه الى الله تعالى، ويحب أن ينال الغاية من ايسر الطرق والنصر بأيسر الاسباب دون أن تشوكه شوكة أو تنتابه محنة. . . ولكن الله تعالى وهو العليم بما يصلح عباده ويفسدهم يعلم أن تكامل الانسان افراداً وجماعات واممـاً لا يتم الا عبر طريق المحنة، وأن تحقيق سيادة كلمة الله على وجه الارض لا يتم الا عبر هذه المعاناة الطويلة.

ولقد كان المسلمون عند الخروج الى موقعة بدر للغارة على قافلة قريش التجارية يتمنون أن يعودوا من بدر بالغنيمة الباردة وبالمال والسلطان والقوة، دون أن يمسهم تعب أو يصيبهم قرح فعلّمهم الله تعالى أنهم لا ينالون ما يريده الله تعالى لهم من تحقيق السيادة والسلطان لهذا الدين على وجه الارض والقضاء على سلطان الباطل دون ان يجتازوا طريق ذات الشوكة الى اللّه.

﴿وإذ يَعِدُكُمُ اللهُ إحدَى الطَّائِفَتَينِ أنَّهـا لَكُم وتَوَدّونَ أنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونُ لَكُم ويُريدُ اللهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ بكَلِمَـٰتِهِ ويَقطَعَ دابِرَ الكَـٰفِرينَ*لِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبطِلَ البَـٰطِلَ ولَو كَرِهَ المُجرِمونَ﴾.(الانفال:٧-٨)

ويذكر القرآن المسلمين بعد معركة أحد أن القرح الذي يصيبهم في طريق الدعوة الى الله لابد منه في تمحيصهم وتطهيرهم وتزكيتهم. كما لابد منه في محق الاخرين... ومن غير هذه القروح لا يتم التمحيص والتزكية في الجماعة المؤمنة كما لا يتم المحق والهلاك والسقوط لمعسكر الكفر:

﴿إن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وتِلكَ الأيَّامُ نُداوِلُها بَينَ النَّاسِ ولِيَعلَمَ اللهُ الَّذينَ ءَامَنوا ويَتَّخِذَ مِنكُم شُهَداءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّـٰلِمينَ*ولِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذينَ ءَامَنوا ويَمحَقَ الكَـٰفِرينَ﴾.(آل عمران:١٤٠-١٤١)

وإن التمحيص ليتم في صورتين:

في خط عمودي في تصفية وتمحيص المؤمنين فأن الابتلاءات والمحن والشدائد تصفي الانسان وتهذبه من كل الشوائب ولا يوجد فى حياة الانسان عامل افضل من عامل الابتلاء في تصفية وتهذيب الذات وتخليصها من سلطان الهوى ومن حب الدنيا.

وتصفية وتمحيص آخر في الخط العرضي في داخل المجتمع وذلك بتخليص المجتمع الاسلامي من العناصر الضعيفة والمنافقة التي تواكب مسيرة المجتمع الاسلامية وحركته الى اللّه.

فان حالة اليسر والرفاه في المجتمع الاسلامي تجمع حوله الكثير من

العناصـر الضعيفة والخائرة والمنـافقة والانتهازيـة ومن الطبيعي أن هـذا التورم يثقل حركة المجتمع الاسلامي الى الله ويعيق تحركه... فاذا جاء الابتلاء، واشتدت المحنة تسـاقطت هـذه العناصر المعيقـة، وتخلصت المسيرة مـن هذه العنـاصر المثبطة للحركة والمعيقة لها.

الطريق الى الجنة محفوف بالبلاء

ثم يذكر القرآن الانسان أن لحظات المعاناة هي الذخيرة التي يدخرها الانسان للقاء اللّه، وهي التي تؤهله للقاء اللّـه... فليس يدخل الانسان الجنة دون أن يجتاز طريق ذات الشوكة، ودون أن يتحمل فـي الله الجهد والعناء، ودون أن يؤذى في الله ويضطهد في اللّه، يصبر على الاذى والاضطهاد في اللّه. فالطريق الى رضوان الله في الجنة والى لقاء الله محفوف بالعناء والفتنة والابتلاء.

﴿أم حَسِبتُم أن تَـدخُلوا الجَنَّـةَ ولَمَّا يَـأتِكُم مَثَـلُ الَّذيـنَ خَلَوْا مِـن قَبلِكُم مَسَّتهُمُ البَأساءُ والضَّرَّاءُ وزُلزِلوا حَتَّىٰ يَقولَ الرَّسولُ والَّذينَ ءَامَنوا مَعَه مَتَىٰ نَصرُ اللهِ ألاَ إنَّ نَصرَ اللهِ قَريبٌ﴾.(البقرة:٢١٤)

﴿أم حَسِبتُم أن تَدخُلـوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَعلَمِ اللهُ الَّذينَ جَـٰهَدوا مِنكُم ويَعلَمَ الصَّـٰبِرينَ﴾.(آل عمران:١٤٣)

﴿ولَنَبلُوَنَّكُـم بِشَيءٍ مِـنَ الخَوفِ والجوعِ ونَقـصٍ مِنَ الأمـوالِ والأنفُسِ والثَّمَراتِ وبَشِّرِ الصَّـٰبِرينَ*الَّذينَ إذا أصابَتهُم مُصيبَـةٌ قالوا إنَّا للهِ وإنَّا إلَيهِ رٰجِعـونَ*أولٰئِـك عَلَيهِـم صَلَـوٰتٌ مِـن رَبِّهِـم ورَحمَـةٌ وأولٰئِـك هُـمُ المُهتَدونَ﴾.(البقرة:١٥٥-١٥٧)

وفي سـورة الصف يذّكـر القرآن المؤمنيـن بأن الجهـاد بالمال والنفـس هو الطريق الى غفران الذنوب ومرضـاة الله تعالـى والدخول الى الجنة، ثم يذكر النصر والفتح بعد ذلك كنتيجة ثانوية للجهاد، امـا الغاية الاولى والفائدة الاولى من جهاد النفس والمال فهو مرضـاة الله والدخول الى الجنة.

﴿يَـٰأيُّهَا الَّـذيـنَ ءَامَنـوا هَـل أدُلُّكُـم عَلـىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجيكُـم مِـن عَـذابٍ أليم*تُؤمِنونَ بِاللهِ ورَسولِهِ وتُجَـٰهِدونَ في سَبيلِ اللهِ بِأموالِكُم وأنفُسِكُم ذٰلِكُم خَيرٌ لَكُـم إن كُنتُم تَعلَمـونَ*يَغفِرْ لَكُم ذُنـوبَكُم ويُدخِلْكُـم جَنَّـٰتٍ تَجـري مِن تَحتِهَا الأنهَـٰرُ ومَسَـٰكِنَ طَيِّبَـةً في جَنَّـٰتِ عَدنٍ ذٰلِـك الفَوزُ العَظيـمُ*وأُخرَىٰ تُحِبّونَها نَصرٌ مِن اللهِ وفَتحٌ قَريبٌ وبَشِّرِ المُؤمِنينَ﴾.(الصف:١٠-١٣)

إن النتيجـة الاولى للجهـاد بالامـوال والأنفس هـو الجنة والجنـة هي الفـوز العظيم. . . امـا الغايـة الثانيـة وهي النصـر والفتح فيعبـر القرآن عنـه بـ«واخرى تحبونها» وكأنه فائدة ونتيجة ثانوية للجهاد.

وأنظروا الى هـذه اللوحة الرائعة المتـدفقة بالحياة والحركـة، ولا أقول اقرأوا وتأملوا كيف يرسـم القرآن مسيرة الانسـان الى الله تعالى ومرضـاته في الجنة من خلال رحلة المعاناة والعذاب.

﴿. . .ذٰلِك بِأنَّهُـم لا يُصيبُهُم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخمَصَـةٌ في سَبيلِ اللهِ ولا يَطَؤُنَ مَـوطِئاً يَغيظُ الكُفَّـٰرَ ولا يَنالونَ مِـن عَدُوٍّ نَيـلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُم بِـهِ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المُحسِنينَ*ولا يُنفِقونَ نَفَقَةً صَغيرَةً ولا كَبيرَةً ولا يَقطَعـونَ واديـاً إلاَّ كُتِـبَ لَهُـم لِيَجـزِيَهُـمُ اللهُ أحسَـنَ مـا كـانـوا يَعمَلونَ﴾.(التوبة:١٢٠-١٢١)

وبهذه الطـريقة يرسـم القرآن دورة المعانـاة في حيـاة الفرد المؤمـن والامة المؤمنة، ويعالج مسألة الابتلاء والمعانـاة في حياة الانسـان، ويوجه الانسان لفهم الابتلاء وطريقة التعامل معه.

ونعود من جديد الى الحديث عـن سنن الله تعالى في المسيرة وضرورة وعي ومعايشة السنن الالهية في هذه الرحلة.

فلا يجوز أن تستغرقنا لحظات الابتلاءات والمعاناة، وتحجبنا عن سنن الله في المسيرة. والانسان اذا لم يحسن التصرف ساعـة الابتلاء ولم يعرف كيف يتعامل مع المحن والابتلاء تحجبه المعاناة عن سنن الله وقوانين الحركة، واذا نظر الانسان

الى المسيرة الكبرى من خلال هذه اللحظات يغلبه التعب واليأس والخوف ويُؤْثِر العافية والحياة الآمنة والوديعة على السير على طريق ذات الشوكة.

ولكن لا تحجب لحظة المحنة والمعاناة الانسان عن رؤية سنن الله تعالى في المسيرة وعن رؤية المشيئة الالهية في حتمية النصر للقلة المؤمنة... يحول القرآن كثيراً نظر المؤمنين من الحاضر الى الماضي والمستقبل الى الماضي في استعراض اطراف وقصص من هذه المسيرة، والى آفاق المستقبل البعيد في اعطاء الاقضية والاحكام الالهية النهائية في الحضارات والامم والتاريخ وعندما يتزود الداعية بهذه الرؤية النفاذة، الثاقبة، بعيدة المدى يستطيع أن يعبر معاناة الحاضر الى سنن الله العامة فتطمئن قدماه على الطريق، ويربط الله على قلبه، ويثبت للمحنة، ويواجه التحديات بصبر وثبات من دون خوف وجزع. انظروا الى هذه الصورة المستقبلية الرائعة لحتمية النصر والتي تنزل على المسلمين ساعة النكسة والمحنة في احد.

﴿ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنينَ﴾. (آل عمران:١٣٩)

وقد نقلت المسلمين في أحد، وهم يعيشون مرارة النكسة والمحنة... الى الآفاق البعيدة للمستقبل والى السنن الالهية في حتمية النصر للمؤمنين «إن كانوا مؤمنين».

فتحول «النكسة في نفوسهم الى شعور قوي بالاستعلاء والقوة والثقة المطلقة بتأييد اللّه، ويتحول هذا الشعور فى نفوسهم الى تحرك وعمل متصل وعزم على مواصلة الطريق.

وحدة المسيرة وطول النفس في العمل

٣- وتعميق الاحساس بالوراثة في نفس الانسان يفيد في تحسيس الداعية بوحدة المسيرة وإن هذه المسيرة على امتدادها الطويل ومراحلها الكثيرة فهي مسيرة واحدة يتوارثها الابناء عن الآباء جيلاً بعد جيل، ويتمتع فيها الابناء بما

ورثوا من مجد الآباء وجهدهم وعملهم وتراثهم، كما أن عليهم أن يورثوا ابناءهم هذا التراث والمجد.

فإن هـذه المسيرة سلسلة واحـدة، مهمتها واحـدة، ومنطلقها واحد وغـايتها واحدة، وخطها واحد، مهما تعددت حلقاتهـا. . . وهي تشكل في التاريخ الحضاري اسرة واحدة بالدقة، وليس من المفروض فـي الاسرة الواحدة في مسير التاريخ أن تتحقق اهـدافها مرة واحدة، وأن يبلـغ كل حلقة مـن حلقاتها كل اهـداف السلسلة وإنما الذي يجـري في مثلها إن يمهد كل حلقة مـن حلقاتها للحلقة التي تـأتي من بعدها، وتعد هده الحلقات جميعاً للغاية العليـا التي تعمل لها، فيشعر كل عضو في هذه المسيرة أنه حلقة واحدة من حلقات كثيرة في سلسلة مباركة ممتدة من آدم عليه السَلام الى أن يأذن الله تعالى للدنيا بالإنتهاء.

فيطول نفس الداعية في العمل، وطول النفـس من اهم عوامل الثبات والنصر. فهو لا يعمـل ليقتطف ثمار عملـه في حياته القصيـرة، وإنما يعمل ضمـن سلسلة ممتدة طويلة من العاملين الدعاة الـى اللّه، ويكفيه أن يجني ثمار عمله الجيل الرابع أو العاشر أو اكثـر أو اقل من بعده وإن الداعيـة الى الله ليحقق كل اهـدافه اذا كان يحصد أبنـاؤه أو أبناء أبنائه حصاد عملـه، كما أنه هـو يجني ثمار جهود اسـلافه وآبائه.

وليس كـذلك من يعمل لغيـر اللّه، وعلى غيـر هذه المسيرة فهو يعمـل لنفسه وللحظة المتعة وليجني ثمرة عمله في خـلال عمره القصير، ومن الطبيعي أن يكون نَفَسُه قصيراً في العمل.

ولقد كنا نقرأ في القصص الحكمية القديمـة «أن ملكاً مر على شيخ طاعن في السن يغرس فسيلاً للنخل فوقف عنده متعجبـاً يسأله لمن يغرس هذا الفسيل وهو في هذه الحـد من العمر فاجـابه الفلاح الطاعن فـي السن: أيها الملك غـرس آباؤنا فأكلنا ونغرس نحن ليأكل أبناؤنا فاعجب الملك جوابه. . . الى آخر القصة».

والامـر لكذلـك في مسيـرة الحضارة الالهيـة الموروثـة من نـوح وابراهيـم

وموسى وعيسى عليهم السّلام. . . أنهم غرسوا غرسة التوحيد فجنينا ثمار عملهم وجهودهم، ونغرس نحن للاجيال القادمة ليجنوا ثمار عملنا.

فقد اجتبانا الله تعالى جيلاً بعد جيل لرسالته، واودع لدينا رسالته نتعاقب عليها جيلاً بعد جيل، فيستلمها كل جيل منا من الجيل السابق ليسلمها الى الجيل الذي يأتي من بعده.

وهذا هو الجانب الالهي من هذا الميراث. والى جانب هذا الميراث الالهي فأن الاجيال المتعاقبة على هذا الميراث تتوارث فيما بينها خبرات العمل والدعوة.

فان محتوى الدعوة الى الله تعالى واحد، لا يختلف من جيل الى جيل، ولكن خبرة الدعاة الى الله في الدعوة تتكامل بالتأكيد، عدا من عصمهم الله بالوحي، وكل جيل من الدعاة يورث الجيل الذي يأتي من بعده الى جانب هذا الميراث الالهى خبرته التي اكتسبها من خلال العمل ومعاناة الدعوة الى اللّه. فإن الدعوة الى الله تعالى من اكثر الامور تعقيداً، والانسان الداعية يحتاج الى الكثير من التعقل والفهم والنضج السياسي ومعرفة أساليب التعامل مع الناس ووعي الظروف الاجتماعية المختلفة وطريقة مواجهة الظالمين، وشجاعة المواجهة والاقدام والقدرة على ضبط النفس والعواطف ويحتاج الى المداراة والمرونة والجدية والقوة واللين. . . يحتاج الى ذلك كله والى غيره من المؤهلات والخبرات ولا يمكن أن تكون هذه المؤهلات والخبرات الضرورية للدعوة والجهاد في جيل واحد، وإنما تتكامل في شخصية الداعية عبر الاجيال وعبر خوض ساحات الصراع والجهاد والمواجهة مع أئمة الكفر والجاهلية. وتساهم هذه الاحداث التي تشكل التاريخ الحضاري والرسالي للانسان في تكوين خبرات ومؤهلات الداعية في ممارسته الدعوة الى الله والجهاد في سبيل اللّه.

ومن المهم جداً أن ينتبه الدعاة الى الله الى الاهمية الحياتية لهذا الميراث الكبير في مجال الدعوة الى اللّه، فلا يغفل أجيال الدعاة قيمة واهمية الخبرة التي اورثها اسلافهم إياهم في مجال الدعوة.

وعلى الدعاة الى الله أن يقرأوا في هـذا المجال بامعان واهتمام قصص الأنبياء في القرآن والحديث وسيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وسيرة الائمة عليهم السّلام ومن والاهم من العلماء العاملين والدعاة الى اللّه، من عباد الله الصالحين.

الامام المهدي «عجل الله فرجه» وارث الأنبياء والمرسلين

والذي يتابع النصوص الاسلامية الواردة في ظهور الامام المهدي عجل الله فرجه وقيام الدولة الالهية الكبرى في عهده على أنقاض الجاهليات البشرية الواسعة... الذي يتابع هذه النصوص يجد أن دولة الامام المهدي هي الدولة الوارثة لكل القيم والتراث الذي جاء به الأنبياء والمرسلون والائمة عليهم السّلام.

والحضارة الجديدة التي يقيمها مهدي آل محمد عليه السّلام على وجه الارض، ليست سوى امتداد للحضارة الاسلامية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون والائمة الهداة عليهم السّلام، وعودة لتلك الحضارة الى صلب الحياة الاجتماعية من جديد، وهي ميراث النبي والصالحين.

وكل ما في الامر من جديد في هذا الطور الجديد من الحياة الذي يقيمه الامام المهدي عليه السّلام هو النضج والرشد العقلي للانسان في هذه المرحلة من الحياة.

عن ابي خالد الكابلي عن ابي جعفر الباقر عليه السّلام قال: اذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع به عقولهم واكمل به اخلاقهم.(١)

وهذا النص يكشف لنا عن النضج العقلي والاخلاقي الذي يميز المجتمع في هذه المرحلة بعد الصراع العنيف والحاسم بين المعسكر الاسلامي ومعسكر الشرك والنفاق.

وتحتمل أن يكون مرور الانسان بمراحل التاريخ المختلفة واختيار الالوان المختلفة من الأنظمة والحضارات وفشل وسقوط هذه الحضارات والأنظمة

(١) منتخب الاثر: ٣٠٨ عن الارشاد للمفيد.

الجاهلية نظاماً بعد نظام وحضارة بعد حضارة من أسباب هذا النضج العقلي والاخلاقي الذي يشير اليه النص الآنف.

وروي في هذا المعنى «أن دولتنا آخر الدول، ولم يبق اهل بيت لهم دولة الا ملكوا قبلنا لئلا يقولوا اذا رأوا سيرتنا اذا ملكنا سرنا بمثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله تعالى: ﴿والعَـٰقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ﴾.[1]

فهذه الدولة اذن بالاضافة الى عصمة قيادتها تستجمع خلاصة تجارب ووعي ونضج هذه المسيرة الربانية والسائرين على هذا الطريق.

وورد في نص آخر ما يتضمن هذا النضج العقلي بصيغة رمزية ومضمون هذا النص:

إن ما استطاع الانسان أن يتلقاه من الأنبياء عليهم السّلام حرفان من العلم فقط فاذا ظهر قائم آل محمد عليه السّلام اظهر للناس خمساً وعشرين حرفاً فيبثها في الناس وضم اليه الحرفين، فيكون مجموع ذلك سبعاً وعشرين حرفاً.[2]

ولا شك أن النص بهذه الصورة من النصوص الرمزية التي يحتاج تفسيره الى تذوق النص من الناحية الادبية.

وسبعة وعشرون هي العدد الكامل للاحرف العربية وعليه فإن سبعة وعشرين حرفاً يعني كمال المعرفة والعلم، وكمال النضج العقلي.

ومارزق الناس من النضج العقلي قبل هذا الطور الجديد من الحياة لا يزيد على جزئين فقط من أحرف العلم والمعرفة اما بقية أجزاء المعرفة والنضج العقلي فلا تتم للانسان الا في هذه المرحلة الجديدة من الحضارة والحياة في عهد المهدي من آل محمد عليه السّلام.

وفي مثل هذه المرحلة من النضج العقلي والفكري والاخلاقي يتم نقل

(١) بحار الانوار٥٢/ ٣٣٦.

(٢) نهج البلاغة٣/ ٢٠٠ شرح محمد عبده تحقيق محي الدين عبد الحميد حكمة رقم: ٢٠٩.

ميراثين الى المجتمع الاسلامي على يد الامام المهدي عجل الله فرجه.

ميراث القوة والسلطان من الظالمين والجبابرة وميراث العلم والحكمة والقيم من الأنبياء والمرسلين والصالحين. عن الميراث الاول يقول امير المؤمنين عليه السّلام «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها» وتلا عقيب ذلك: ﴿ونُريدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ استُضعِفوا في الأرضِ ونَجعَلَهُم أئِمَّةً ونَجعَلَهُمُ الوارِثينَ﴾.[1]

يقول محمد عبده في شرح هذه الفقرة«الشماس –بالكسر– امتناعْ ظهر الفرس من الركوب، والضروس –بفتح فضم– الناقة السيئة تعض حالبها: اي أن الدنيا ستنقاد لنا بعد جموحها، وتلين بعد خشونتها، كما تنعطف الناقة على ولدها، وإن أبت على الحالب»

واقبال الدنيا هو اقبال القوة والسلطان والمال، وهو ميراث الصالحين من الظالمين واستشهاد الامام عليه السّلام بقوله تعالى:

﴿ونُريدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ استُضعِفوا في الأرضِ ونَجعَلَهُم أئِمَّةً ونَجعَلَهُمُ الوارِثينَ﴾ يؤكد هذا المعنى.

ويقول عليه السّلام: «وتخرج له الارض من أفاليذ اكبادها وتلقي اليه سلماً مقاليدها»[2] قال الشيخ محمد عبده في شرح هذه الفقرة: وهذه كناية عما يظهر لمن يقوم بالامر من كنوز الارض.

والميراث الآخر في هذه الحضارة التي يقيمها المهدي من آل محمد هو ميراث الأنبياء والمرسلين عليهم السّلام. وهو الميراث المعنوي في هذه الدولة فيما كان الميراث الاول هو الميراث المادي.

عن ابي خالد الكابلي عن ابي جعفر الباقر عليه السّلام قال ابو جعفر: والله لكأني

(١) نهج البلاغة: ٢ خطبة ١٣٤.

(٢) بحارالأنوار٥٢/ ٣١٥و٣٤١ وراجع تفسير العياشي٢/ ٥٦.

أنظر الى القائم عليه السّلام وقد اسند ظهره الى الحجر ثم ينشد الله حقه ثم يقول:

أيها الناس من يحاجني في الله فأنا اولى بالله.

أيها الناس من يحاجني في آدم فأنا أولى بآدم.

أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى بنوح.

أيها الناس من يحاجني في ابراهيم فأنا اولى بابراهيم.

أيها الناس من يحاجني في موسى فأنا اولى بموسى.

أيها الناس من يحاجني في عيسى فأنا اولى بعيسى.

أيها الناس من يحاجني في محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم فأنا اولى بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم.[(١)] ايها الناس من يحاجني في كتاب الله فأنا اولى بكتاب اللّه.

وروى حريز عن ابي عبد اللّه عليه السّلام قال: لن تذهب الدنيا حتى يخرج رجل منا اهل البيت يحكم بحكم داود وآل داود، لا يسأل الناس بينة.

ومن قراءة هذه النصوص وامثالها نلمس بصورة دقيقة العلاقة الوثيقة التي تربط الدولة والحضارة التي يقيمها المهدي من آل محمد عليه السّلام بالاصول والقيم والمعارف والحكم التي جاء بها الأنبياء عليهم السّلام من قبل.

وبذلك يكون الامام المهدي عجل الله فرجه بقية حجج الله وخليفة أنبياء اللّه.

يقول امير المؤمنين عليه السّلام كما ورد

في نهج البلاغة في الامام المهدي عليه السّلام:

«قد لبس للحكمة جنتها، واخذها بجميع ادبها، من الاقبال عليها، والمعرفة بها، والتفرغ لها... وضرب بعسيب ذنبه والصق الارض بجرانه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبيائه».[(٢)]

فالامام -اذن- بقية من بقايا حجج الله وخليفة أنبيائه، ودولته التي يقيمها هي ميراث أنبياء اللّه.

(١) بحارالأنوار٥٢/ ٣١٩.

(٢) نهج البلاغة٢/ ١٣٠ شرح محمد عبده تحقيق محي الدين عبد الحميد.

العُجب

بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿ قل هل ننبِّؤكم بالأخسرين أعمالاً*الَّذين ضلّ سعيهم في الحيوٰة الدُّنيا وهم يحسبون أنَّهم يُحسِنون صُنعاً*أولئك الَّذين كفروا بآيٰت ربِّهم ولقائه فحبطت أعمٰلُهم فلا نُقيم لهم يوم القيٰمة وزناً﴾ . (الكهف : ١٠٤)

المدخل الى البحث

من أخطر ما يصنعه الشيطان بالانسان من مكر، هو «العجب» وذلك أن الشيطان قد يحرف الانسان من العبادة الى الشرك، وهذا نوع من المكر ظاهر يتمكن الانسان من مكافحته وقد يحول الشيطان العبادة نفسها الى الشرك، وهذا هو أخطر مكر الشيطان. وقد يقطع الشيطان السبيل على الانسان فيحوله من الاقبال على اللّه الى الاعراض عن اللّه وقد يحول الشيطان الاقبال على اللّه-نفسه-الى الاعراض عن اللّه وهذا أخطر من الأول.

كيف يمكر الشيطان هذا المكر، وما هي الأداة التي يستخدمها فيحول العبادة والاقبال على اللّه الى الشرك والاعراض عن اللّه. الجواب على ذلك ينطوي في

كلمتي «العجب» و «الرياء».

في العجب يحجب الشيطـان الانسان عن اللّه بـ«الأنا»، ويجعل الأنـا حجاباً بين الانسـان وبين اللّـه فتتحول العبـادة الى ضـدها: إعـراض وشرك، وفـي الريـاء يحجب الشيطان الانسان عن اللّه بالغير، وليـس بـ«الأنا» فيجعل وجهة عمله والغاية من عمله هـو «الغير» وليس اللّه ويستدرج الانسـان من الاخلاص لله تعـالى وإبتغاء مرضـاته الى إبتغاء مـرضاة الآخريـن، وإعجابهم فيتحـول عمل الانسان من الطـاعة والاقبال على اللّه الى الشرك والاعراض عن اللّه.

إذن من أخطر مكر الشيطـان في حياة الانسان «العجب» و «الريـاء» ونحن في هذه المقالة نحاول أن نبحث عن «العجب» إن شاء اللّه ونتعرف على أسبابه وأعراضه وأنواعه وعلاجه من خلال القرآن الكريـم.

علاقة الانسان بنفسه

من طرائف الفكر الاسـلامي تحديد نوع علاقة الانسان بنفســه. وهو أفق واسع في نفس الانســان وقد تتعقد شبكة العلاقة التـي تربط الانسان بنفسه أكثـر من تعقيد شبكة العـلاقات الاجتماعيـة التي تربـط الانسان بـالآخرين مـن أفراد أسرتـه وزملائه وأصدقـائه ومنافسيـه وأعدائه. ولكل مـن هاتين الشبكتيـن «في النفـس والمجتمع» أصولها وأحكـامها ومنهاجها التربـوي الذي يخصها. ولعل إهتمام الاسـلام بالشبكة الاولى في علاقة الانسان بنفسه لا تقل عن إهتمامه بالشبكة الثانية في علاقة الانسان بالآخرين.

وللناس فـي العلاقة بـأنفسهم أطوار مختلفـة فقد تكـون علاقة الانســان بنفسه قائمة على «السلام مع النفس»-كما قال المسيح بن مريم عليهما السّلام ﴿والسَّلٰـم عليّ يوم ولدتُ ويوم أمُوت ويوم أُبعَث حيّاً﴾. (مريم: ٣٣)

فهذا طور من العلاقـة بالنفس قائمة على السلام مع النفـس، وقد تكون علاقة الانسان بنفسه قـائمة علي أساس مـن الظلم والاعتداء يقول تعـالى: ﴿وما ظلمنٰـهم

ولكن ظلموا أنفسهم﴾. (هود: ١٠١)

وقد تكـون علاقة الانسان بنفسـه قائمة على أسـاس «التفكير الذاتي بـالنفس» يقول تعالى: **﴿أولم يتفكَّروا في أنفسهم﴾**. (الروم: ٨)، وقد تكون العـلاقة بالنفس قائمـة علي أسـاس مراقبة النفـس، وإخضاعهـا للمراقبة والحسـاب يقول تعـالى: **﴿عليكم أنفسكم لا يضـرُّكم من ضلّ إذَا اهتـدَيتم﴾**. (المائدة: ١٠٥)، وقـد تكون هذه العلاقة بالعكس قائمة على أسـاس نسيان النفس وإهمال مراقبتها يقول تعالى: **﴿أتأمرون النّاس بالبرِ وتنسَون أنفسَكم﴾**. (البقرة: ٤٤)

وقد تكون علاقـة الانسان بنفسه قائمة على أساس الصراع الـداخلي بين الخير والشر «إن النفس لأمارة بالسوء».

وقـد تكـون هذه العـلاقـة قـائمة علـى أسـاس إستقـرار النفس علـى الهـدى والاستقامة على خط الفطرة يقول تعالى: **﴿يـٰأيَّتهَا النَّفس المطمئنَّة ارجعي إلىٰ ربِّك راضيةً مرضيّةً﴾**. (الفجر: ٢٧)، ويقول تعالى: **﴿الَّذين ءَامنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر اللّه﴾**. (الرعد: ٢٨)، وهنـاك نماذج أخرى كثيرة لعـلاقة الانسان بنفسه. قـد أولاها القرآن الكريم إهتماماً كبيراً. والذي يقرأ القـرآن بإمعان يجد أن علاقة الانسان بنفسه وتنظيم هذه العلاقة وتصحيحها يأخذ من كتاب اللّه إهتماماً كبيراً ومساحة واسعة.

ولا نريد نحن أن ندخـل هذا الافق من البحث في هذا المقال وإنمـا نريد فقط أن نشير الى أن مـن النماذج الخطرة لعلاقة الانسـان بنفسه هو «العجب» وهـو حالة إنشداد الانسان بنفسـه وإعجابه الشديـد بها وبأعمالهـا بحيث يستأثر «الأنـا» بكل إهتمامه وإعجابه ويستأثر بكل رؤيته، فلا يرى غير نفسه وغير أعماله.

وعندمـا يبلغ الانسان هذه الـدرجة من الانشداد بـالأنا يحجبه «الأنا» عـن اللّه تعالـى، فيملأ الضئيـل الذي يقـدمه للـه تعالـى من عمـل وجهد وطـاعة كـل قلبه وإحساسه، دون أن يرى عظيم رحمة اللّه تعالى وفضله وجميله به.

ولو كان الإنسان ينظر الى الاشياء نظرة سوية ويراها بحجمها الحقيقي لأستهان بجهده وعمله وطاعته لله تعالى، وأكبر فضل اللّه تعالى ورحمته في حقه، وإستحى

من اللّه تعالى أن يقابل عظيم رحمته وفضلـه بمثل هذا الجهد الضئيل . ولكن عندما يستأثر الأنا بكل رؤيته وإهتمامه وإعجابه لا يرى إلا جهده وفعله ، دون أن يرى رحمة اللّه تعالى وفضله فيتحـول إقباله على اللّه وطاعته لله بهذه الطـريقة النفسية الملتوية الى إعراض عن اللّه وشرك ، أو كفر باللّه تعالى ، فإن الكافر هو الذي يحجبه حاجب عن اللّه تعالى حجباً كاملاً . والعجـب اذا دخل النفس وتمكن منها يحجب الانسان عن اللّه حجباً كاملاً وفي ذلك هلاك الانسان وسقوطه التام .

عن الامام الصادق عليه السّلام : من دخله العجب هلك .

وأما فـي الحالات السويـة ، عندما يقتـرن عمل الانسان وجهـده في طاعـة اللّه تعالى بإحساس حقيقـي وواضح بعجزه عن شكر اللّه تعالى ومقـابلة إحسانه وفضله فإن عمله عند ذلك-علـى ضآلة حجمه يكون جسراً يوصله الـى اللّه تعالى وقد روي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السّلام أنه قال لبعض ولده : يا بني عليك بالجد ولا تخرجن نفسـك عن حد التقصير في عبادة اللّـه عزوجل وطاعته فـإن اللّه لا يعبد حق عبادته .

وعن جابر قال : قال لي أبو جعفر عليه السّلام : يا جابر لا أخرجك اللّه من النقص ولا التقصير .

فالعمل الواحـد إذن قد يؤدي بالانسان الى طـريق اللّه تعالى ويقربـه من اللّه ، وقد يحجبـه ويقطعه عـن اللّه تعـالي والفـارق الرؤيـة ، وهو أمـر عظيم يستحـق من الانسان كل إهتمام .

فقد لا يختلف عمل عن عمل من حيـث الحجم والوزن ، ولكن أحدهما يقرب العبد الي اللّه تعالى والآخر يبعده عنه تعالى .

«العجب» و «الاعتداد بالنفس» و «الأنانية»

العجب حالة واحدة من ثلاث حالات ناتجة عن إنشداد الانسان بمحور الأنا .
وهذه الحالات الثلاثة هي «العجب» و «الاعتداد بالنفس» و «الأنانية» .

و«العجب» هو أن يستأثر الأنا بإعجاب الانسان ويحجبه عن رؤية فضله تعالى ورحمته به، وفي مقابل «العجب» الشعور بالتقصير والعجز عن أداء شكره ومقابلة فضله ورحمته بالطاعة والعبادة.

والاعتداد بالنفس هي حالة أخرى من حالات الانشداد للنفس تتلخص في إعتماد النفس وطرح الثقة بالنفس في مقابل التوكل على اللّه ووضع الثقة المطلقة في اللّه تعالى. وهما حالتان من الاعتماد والثقة في مقام العمل. وفي الحالة الاولى يضع الانسان ثقته في نفسه، ويعتمدها وهي الحالة الانحرافية في التعامل مع النفس، وفي الحالة الثانية يضع الانسان ثقته في اللّه تعالى ويعتمده في شؤونه وحياته وأعماله كلها وهي الحالة السوية في التعامل.

والحالة الثالثة من حالات الانحراف النفسي في إنشداد الانسان بنفسه هي حالة الأنانية، وهي حالة يكون فيها «الأنا» هو المحور الذي يدور حوله كل حركة الانسان ونشاطه، ويستأثر بكل فعالية الانسان وتحركه. وفي مقابل هذه الحالة «الاخلاص لله» الذي يجعل مِن مرضاة اللّه تعالى محوراً لكل سعي الانسان وحركته ونشاطه.

إذن هناك ثلاث حالات من الانشداد بالذات هي «العجب، الاعتداد بالنفس، الأنانية». وهي حالات إنحرافية في نفس الانسان نابعة من إنشداد الانسان لنفسه وحبه لها وفي مقابلها حالات ثلاثة سوية من الانشداد باللّه تعالى والتعلق به و إيثار مرضاته على كل شيء وهي «الاحساس بالتقصير والعجز من أداء شكر اللّه تعالى والتوكل على اللّه، والاخلاص لله».

أقسام العجب

قد يعجب الانسان بنفسه وملكاته وخصاله وقد يعجب الانسان بأعماله وقد تكون خصاله وملكاته التي تعجبه خصالاً وملكات صالحة، وقد تكون خصالاً وملكات سيئة. فقد يعجب الانسان بما في نفسه من رأفة ورحمة، وقد يعجب

الانسان بما في نفسه من قسوة وغلظة . وقد تكون أعماله التي تعجبه أعمالاً صالحة وحسنات ، وقد تكون أعمالاً فاسدة وسيئات فقد يعجب الظالم بظلمه وإجحافه وتعسفه بالناس ، ويحسب أن ذلك من متطلبات الحزم والقوة . وهو أقبح أنواع العجب ، ويصف اللّه تعالى في كتابه أصحاب هذه الحالة بالاخسرين أعمالاً . يقول تعالى : ﴿ **قل هل ننبّؤكم بالأخسرين أعمالاً*الَّذين ضلّ سعيهم في الحيوٰة الدُّنيا وهم يَحسبون أنَّهم يُحسِنوٰن صنعاً*أولئك الَّذين كفروا بآيٰت ربِّهم ولقائه فحبطت أعمٰلهم فلا نُقيم لهم يوم القيٰمة وَزناً** ﴾ . (الكهف : ١٠٤)

مراحل العجب

للعجب مراحل في نفس الانسان . فقد يعجب الانسان بنفسه وخصاله وأعماله وتمتلىء نفسه زهواً بما عنده من خصال وأعمال فيحجبه هذا الشعور عن رؤية فضل اللّه تعالى عليه ورحمته به . وإنما يحجبه خصاله ومواهبه عن اللّه اذا فصلها عن اللّه تعالى وربطها بنفسه ، كأنها أشياء تخصه وهو صاحبها وليس لله تعالى فيها عليه فضل . فيحجبه هذا الشعور عن اللّه تعالى ، ويكون الأنا حجاباً للانسان .

أما اذا كان إحساسه بنفسه وخصاله وأعماله في إمتداد إحساسه بفضل اللّه تعالى ورحمته ، فهذا الاحساس لا يحجبه عن اللّه تعالى ، بل يعمق إرتباطه باللّه ، ويكرس ذكر اللّه تعالى في نفسه .

والمرحلة الاخرى من العجب أن يتجاوز الانسان مرحلة العجب بالنفس وخصالها وأعمالها الى مرحلة الادلال على اللّه سبحانه فيتصور الانسان أن له بأعماله دالة على اللّه تعالى وهذه مرحلة «الادلال» .

ويأتي بعد هذه المرحلة مرحلة «التوقع» من اللّه ، فيتوقع الانسان من اللّه ألا يرد له دعاء مثلاً أو أن لا يصيبه بسوء ومكروه ، ولا يقوم هذا التوقع على أساس من حسن الظن باللّه تعالى ورحمته ومنّه على عباده وإنما يقوم على أساس الاحساس باستحقاق من اللّه تعالى بإزاء عمله وجهده . وهذه المرحلة من العجب أقبح من

سابقتها.

ويأتي بعد هـذه المرحلة مرحلة «العتاب» و «الاعتـراض» المكتوم على اللّه اذا لم تتحقق توقعات الانسان كما يريد، وكما يرى أنه يستحقها من اللّه تعالى، عندئذ يضمر العتاب والاعتراض في نفسه على اللّه تعالى، وهو على حد الكفر باللّه تعالى وهو أقبح من سابقه.

ويأتي بعد هـذه المرحلة مرحلة «المن» على اللّه. فـإن الانسان اذا تمادى في شعوره هذا يستـدرجه الشيطان الى الاحساس بـالمن على اللّه، فيتصور أنـه قد أفاد ديـن اللّه، ونفـع رسالـة اللّه، وأدى خـدمة الـى اللّـه تعالـى. وهو مـن أقبح أنـواع العجب، وهو على حد الكفـر باللّه تعالى كما ذكرنا، أو من الكفر بـاللّه أعاذنا اللّه تعالى منه.

أسباب العجب

العجب يتكـون من عنصـرين الانبهار بــ«الأنا» والغفلة عن اللّـه تعالـى وهما مرتبطان ومتداخلان فإن الانبهار بـ«الأنا»، اذا فصله الانسان عن اللّه تعالى يحجب الانسان ويغفله عن اللّه، والعكس كذلـك صحيح. فإن الانصراف والغفلة عن ذكر اللّه يعطي الفرصة للانا ليستأثر بمشاعر صاحبه، ويبهره.

إلا أن جذور حالة العجـب تكمن في «الغفلة» عن ذكر اللّـه، فإن الانسان اذا كان ذاكراً لله تعـالى، مستحضراً لعظمته وجلاله ورحمتـه ونعمائه لا يمكن أن يكبر عنده «الأنا»، ولا يمكن أن يستأثر الأنا بإهتمـامه وإعجابه وذكره، وإنما يبرز «الأنا» في حياة الانسـان بقدر ما يغيب ذكر اللّـه عن قلب الانسان. وعلى ذلـك فإن علاج «العجب» أيضاً هو من نفس سنخ السبب، وهو إستعادة ذكر اللّه وتمكينه من العقل والقلب، وتكريس «الذكر» من النفس.

وليس الذكر من مقولة القول واللفظ في شيء، وإنما القول واللفظ تعبير وإبراز للـذكر، وحقيقـة الذكـر هو إستحضـار صفات اللّـه وأسمائه الحسنـى ونعمائه فـي

النفس.

أعراض العجب

من أخطر الامراض التي تصيب الانسان «العجب» وخطورة هذا المرض تنشأ من خطورة الاعراض والنتائج المترتبة عليه ونحن نشير فيما يلي الى بعض أعراض حالة العجب.

الاستكبار:

إن حالة العجب تكرس «الأنا» في نفس الانسان وتدفع الانسان الى تضخيم حجم «الأنا» في نفسه، وفي نفس الوقت تؤدي الى ضمور ذكر اللّه في قلب الانسان.

وهذا التورم في «الأنا» عندما يقترن بضمور ذكر اللّه في النفس يصبح أساساً لحالة إنحرافية مرضية خطيرة في النفس يبتغي فيها الانسان التميز والكبر على الآخرين ويتصنع فيها الكبر والتمييز، وهي الحالة التي يسميها القرآن بالاستكبار والتكبر. وقد يكون التكبر علي الحق وحتى على آيات اللّه وأحكامه، فيرفض المتكبر أن يخضع للحق، ويرفض أن يقبل بآيات اللّه وأن يخضع لأحكامه وأمره ونهيه. وهذا الرفض واللجاج من أبرز خصائص التكبر.

وحالة التكبر والعناد هي الاساس لأعظم مصائب الانسان وبؤسه وشقائه وهي التي حجبت أعداء اللّه تعالى من أمثال فرعون ونمرود وهامان وأبي سفيان وأبي جهل وعتاة قريش عن رؤية آيات اللّه وعن الخضوع لأحكامه تعالى. ومن قبل منعت إبليس عن السجود لآدم ﴿**ولقد خلقنٰكم ثم صوّرنٰكم ثمَّ قلنا للملٰئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من السّٰجدين*قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتُك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين*قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبَّر فيها فاخرُج إنَّك من الصّٰغِرين**﴾. (الاعراف: ١٠-١٣)

وما أضر بالانسان شيء أعظم من «التكبر» وما يهلك الناس ويدفعهم الى جهنم شيء أعظم من «التكبر».

والذي يمعن النظر في كتاب اللّه يرى أن التكبر هو أساس «الاعراض عن الايمان باللّه تعالى» والاعراض عن «لا إله إلا اللّه»، ﴿إنَّهم كانوا إذا قيل لهم لا إلٰه إلاّ اللّه يستكبرون﴾(الصافات: ٣٥). وأساس الاعراض عن دعوة الانبياء ﴿أفكلَّما جاءكم رسولٌ بما لا تهوىٰ أنفسكمُ استكبرتم﴾(البقرة: ٨٧). وأساس الكفر باللّه ورسوله﴿قال الَّذين استكبروا إنّا بالَّذي ءَامنتم به كٰفرون﴾(الاعراف: ٧٦). وأساس العناد واللجاج والصدّ عن سبيل اللّه ﴿... لوَّوا رءُوسَهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون﴾(المنافقون: ٥) ﴿... واستغشَوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً﴾(نوح: ٧) ﴿قال الملأ الَّذين استكبروا لنخرِجنَّك يٰشُعَيب﴾. والاستكبار يؤدي الى الاستنكاف عن عبادة اللّه تعالى ﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشُرهم إليه جميعاً﴾(النساء: ١٧٢). وهؤلاء المتكبرون اذا تمادوا في الكبر يطبع اللّه على قلوبهم وأبصارهم ﴿كذٰلك يطبع اللّه على كلِّ قلبِ متكبِّرٍ جبّارٍ﴾(غافر: ٣٥) ﴿وإذا تتلىٰ عليه ءَايٰتنا ولّىٰ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾(لقمان: ٧). وهؤلاء تغلق عليهم أبواب السماء «أبواب الرحمة» ﴿إنَّ الَّذين كذّبوا بآيٰتنا واستكبروا عنها لا تُفتَّح لهم أبواب السَّماء﴾(الاعراف: ٤٠)، وتتفتح عليهم أبواب جهنم ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنَّم خالدين فيها فبئس مثوَى المتكبِّرين﴾(الزمر: ٧٢) ﴿... أليس في جهنَّم مثوىً للمتكبِّرين﴾. (الزمر: ٦٠)

الانحراف المركب:

والانحراف على شكلين بسيط ومركب. أما البسيط فهو أن ينحرف الانسان عن صراط اللّه تعالى عالماً بإنحرافه، وأمر هذا الانحراف أهون من غيره فإن فرص الاستقامة تبقى قائمة للانسان عندما يكون إنحرافه بسيطاً. أما اذا كان صاحب الانحراف يؤمن بأنه يحسن صنعاً ويسير على الصراط المستقيم فذلك من الانحراف

المركب «تركيب من الانحراف والجهل» وهذا أخطر من الانحراف الاول. فإن الانسان المنحرف يعتقد في هذه الحالة أنه ليس بمنحرف. وهذا التصور يفوت عليه فرص العودة والاستقامة.

و«العجب» من أهم مصادر هذه الحالة من الانحراف المركب، فإن الانسان عندما يأخذه العجب بنفسه يرى القبيح الذي يصدر منه حسناً والسيئة التي يرتكبها حسنة، ولا يسمح لأحد أن يراجعه في شيء من ذلك، ولا يسمح لنفسه الشك والترديد في سلامة شيء من مواقفه وأعماله، ويرى لنفسه ما يشبه العصمة وهذه الحالة كما ذكرنا أخطر حالات الانحراف والى هذه الحالة من الانحراف المركب تشير الآية الكريمة:

﴿ قل هل ننبّؤكم بالأخسرين أعمالاً*الّذين ضلّ سعيهم في الحيوٰة الدُّنيا وهم يَحسَبون أنَّهم يُحسِنون صنعاً*أولئك الّذين كفروا بآيٰت ربّهم ولقائه فحبطت أعمٰلُهم فلا نُقيم لهم يوم القيٰمة وزناً﴾ .

عندما يبلغ الانسان هذه الدرجة من الانحراف تحترق عنده الرؤية بشكل كامل فيتصور قبائح أعماله وسيئاته حسنات، «وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».

وهذه حالة من حالات عمى العقل والقلب والبصيرة، يفقد فيها الانسان القدرة على التمييز بين الحق والباطل، كما يفقد المصابون بعمى الالوان القدرة على تمييز بعض الالوان، بل «العمى» في حالة العجب أخطر، حيث لا يفقد فيها الانسان الرؤية فقط، وإنما تنعكس فيها الرؤية فيرى القبيح منه حسناً، ويرى الحسن من غيره قبيحاً. وتسبب هذه الحالة من العمى وفقدان القدرة على التمييز إنقلاب المقاييس عند الانسان في حالة «العجب».

فإن الانسان في حالة الرشد والاستواء يجعل من الحق مقياساً لنفسه وأعماله ومواقفه ويطبق نفسه وأخلاقه وسلوكه ومواقفه دائماً على هذا المقياس فيستقيم ويصحح أعماله ومواقفه كلما تعرض لخطأ أو إنحراف.

وكلما يتقدم الانسان في «العجب» أكثر تتعمق في نفسه هذه الحالة من

إنقلاب المقاييس أكثـر من ذي قبل، حتى ينقلب الانسان فيكون هو مقيـاساً كاملاً للحق، فما يعمله هـو الحق وما يتركه هو البـاطل وما يريده هو الحـق، وما يعارضه ويرفضه هـوالباطل ويكون «الأنا» هـو المقياس للحق، وليس «الحـق» هو المقياس للانا.

والقرآن يصف هؤلاء بأوصاف عجبة، تستوقـف الانسان، وتدعو الى كثير من التأمل والتفكير.

فهو يقـول لهم أولاً «الذين ضـلّ سعيهم في الحياة الـدنيا» وهذه حالـة تخص الحياة الـدنيا، فيضيع سعيهـم، وضياع السعي بـإنتفاء الاثـر والفائدة المترتبـة على السعي، فإن السعـي كالحرث يؤتي ثمـاره طيبة شهية، اذا أراد اللّه تعالـى لها الخير وبارك فيـه، ويكون مبتـوراً عقيماً اذا سلـب اللّه تعـالى منـه الخير والبـركة، كـذلك «السعي» و «الحركة» اذا سلب اللّـه تعالى منه الخير والبركة كان جهـداً ضائعاً وسعياً ضالاً.

ويعبر القـرآن عنهم ثانياً بـ«الأخسرين أعمالاً» وهذه أيضـاً حالة تخص الـدنيا والخسارة هي أن يفقد الانسان جهده وحياته وحـركته دون أن يأتي له ذلك بنتيجة أو ثمرة، وجهـد الانسان وحركتـه وعمره هـو «رأس ماله» الـذي يتاجر بـه ويحولـه الى «مرضـاة اللّه» و «قـرب اللّه» و «ثواب الآخـرة». وكل جهـد وحركة وسـاعة مـن عمر الانسان لا يتحول الى هذه النتائج فهو خسارة العمر والجهد، وكان مثل هذا الانسان مثل التـاجر الذي ينفـق رأس ماله دون أن يعـود عليه بـأي شيء وهذه هـي الخسارة لكبيرة التي تشير اليها سورة العصر: «والعصر إن الانسان لفي خسر».

ولكن القرآن الكريم-لا يقتصر هنا في تصـوير مأسآة الانسان-على هذا الحد وإنما يتجـاوز ذلك ويصـف مأسآة الانسـان في هذه الحـالة بـ«الأخسرين أعمالاً» بصيغة أفعل التفضيل. وسبـب تكريس حالة الخسارة هـذه أن جهد الانسان وسعيه وحركته ليس فقط يضيع، وإنما يتحول الى ضده، فيتحول جهد الانسان الى عذاب اللّه وعقابه وغضبه عوض أن يتحول الى رحمة اللّـه وقربه ورضوانه وجنته. كمن ينفق

ماله في إرتكاب جريمة فيعاقب ويغرم، فإن هذا الانسان ليس فقط يخسر رأس ماله، و إنما ينقلب رأس ماله الى وبال عليه.

ثم يقول القرآن الكريم عنهم ثالثاً «فحبطت أعمالهم، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» وهذه الحالة تخص يوم القيامة وهي حالة «الحبط» الكامل في الآخرة وحالة «إنعدام الوزن» «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً».

وحالة «الحبط» في مقابل أصل لله«البقاء» و «الثبات» للاعمال في يوم القيامة، والذي يشير اليه القرآن في كثير من آياته «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ثرة شراً يره» ﴿**ووُضِعَ الكتٰب فترَى المجرمين مشفقين ممّا فيه ويقولون يٰوَيلتنا مال هٰذا الكتٰب لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصيٰها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يَظلمُ ربُّك أحداً**﴾. (الكهف: ٤٨)

وبموجب هذه الحالة لا ينعدم شيء من العمل من خير أو شر يصدر عن الانسان يوم القيامة. وهذا أصل كوني من الاصول الكونية التي يشرحها القرآن في تبيان سنن اللّه تعالى.

إلا أن «الكفر» و «الانحراف المركب» النابع من العجب يؤدي الى حبط الاعمال يوم القيامة «فحبطت أعمالهم»، وأصل «الحبط» في مقابل أصل الثبات.

كما يؤدي الكفر والانحراف المركب الى حالة «إنعدام الوزن» يوم القيامة «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً». وبالوزن يوم القيامة يستقر الانسان في رحمة اللّه ورضوانه، واذا فقد الانسان الوزن يوم القيامة فلا يستطيع أن يستقر في رحمة اللّه.

أرأيت لو أن الانسان فقد «الوزن الفيزياوي» في الدنيا على وجه الارض هل يستطيع أن يستقر فيها أو يبني لنفسه حياة فيها، كذلك إنعدام الوزن يوم القيامة.

علاج العجب

في حياة الانسان مصدران للابتلاء: «الهوى» و «الأنا» وكل منهما سبب لسقوط الانسان وهلاكه.

فقد يسقط الانسان على مزلق الاستجابة للهوى فيملك الهوى أمره، ويحكمه في حياته فيجره الى الهلاك والسقوط. وهو باب واسع من أبواب الفساد والهلاك والسقوط في حياة الانسان، وقد حذر الاسلام منه كثيراً واعتبره من أخطر المزالق التي تواجه الانسان.

وهذه الآية الكريمة تجمع طائفة من أمهات الاهواء في حياة الانسان «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب».

والمصدر الآخر للسقوط والهلاك والفساد في حياة الانسان هو «الأنا»، وكما كانت الاستجابة غير المحدودة للهوى سبباً في السقوط والهلاك في حياة الانسان كذلك الاستجابة غير المحدودة للانا يعتبر المصدر الثاني لسقوط في حياة الانسان. فإن الأنا عندما يستعلي ويستكبر ويتحول الى محور يستقطب كل إهتمامات ومشاعر وجهد الانسان يتحول الى صنم يتخذه الانسان إلهاً في حياته من دون الله. وهذا باب واسع آخر للسقوط والفساد والهلاك في حياة الانسان.

وقد أعطى الاسلام في منهاجه التربوي إهتماماً لهذا وذاك معاً.

والطريقة الصحيحة في معالجة كل من «الهوى» و «الأنا» ليس في إستئصاله أو كبته ومحاربته، وإنما في تعديله وتلطيفه والتحكم فيه.

ومن الوسائل التربوية الصحيحة في تعديل كل من «الهوى» و «الأنا» وضبطه والتحكم فيه العبادات.

ففي العبادات ما يتخذه الاسلام وسيلة لتعديل الهوى وكفه وضبطه وتحديده كالصوم.

ومن العبادات ما يتخذه الاسلام أداة لتعديل الأنا وتحجيمها كالصلاة فإن الصلاة وسيلة فعالة وقوية لإذلال الأنا وتركيعها بين يدي الله تعالى في الاذكار والافعال معاً. فالتكبير والتهليل، والحمد، والتعبيد، والاستعانة بالله والتوحيد والدعاء في الذكار يذلل الأنا ويخضعها لله، ويشعرها بهذا الذل والخضوع

بإيحاءات متعدده .

والحج عبادة فريدة في الاسلام يجمع بين هذا وذاك ففي الحج منهاج تربوي واسع لتدريب الانسان على ضبط الهوى وتحديده، ويمكن الانسان من أهوائه وشهواته .

ففي محرمات الاحرام منهج عملي لضبط مجموعة من الاهواء القوية والمؤثرة في النفس كالغريزة الجنسية والنزوع الى جملة من الطيبات والنزوع الي الرفاه والراحة .

وفي محرمات الاحرام ما يضبط الأنا ويحدده-ويتحكم فيه . كتحريم لبس المخيط على الحجاج الرجال . واللباس من أبرز سمات شخصية الانسان في إنتمائه الطبقي والقومي . وفي الميقات يتجرد الحجاج من كل ملابسهم وأزيائهم الشخصية والقومية ويظهرون بمظهر واحد، دون إمتيازات شخصية أو طبقية أو قومية أو فئوية .

ومن محرمات الاحرام «الجدال» وهو من الميول الأنانية العميقة في نفس الانسان بالظهور والاستعلاء على خصمه .

والطواف يرمز الى تكريس التوحيد ومحورية «اللّه» تعالى في حياة الانسان في مقابل تكريس محورية الذات . ولوقوف المسلمين جميعاً في عرفات في وقت واحد في واد غير ذي زرع من دون إمتيازات وفوارق للبعض على بعض، للتذلل والتضرع بين يدي اللّه تعالى دور كبير في إذلال الأنا وتعبيدها لله تعالى وتحويلها من طور الالوهية والأنانية الى طور العبودية لله تعالى .

والذي يمعن النظر في فريضة الحج يجد أن هذه الفريضة العبادية تتضمن منهاجاً تربوياً دقيقاً وعملياً في ضبط «الهوى» و «الأنا» وتعديلهما وتعبيدهما لله تعالى .

ونحن في هذا الحديث لا نريد أن نبحث عن الهوى وأخطاره وأعراضه وعلاجه في حياة الانسان . فليس في هذا المقال موضع للدخول في هذا البحث، و إنما أشرنا اليه إشارة لنعرف موضع «الأنا» من الاخطار التي تهدد حياة الانسان، وليكتمل عندنا

منهج البحث و إطاره .

فإن «الأنـا» هو مصـدر «العجب» في حيـاة الانسان. ولا محـالة بكـون علاج العجب بعلاج الأنا. و«الأنـا» كما ذكرنا أحد مصدري الخطـر والسقوط والفساد في حياة الانسان .

فلنتأمل إذن في «الأنا» ونترك البحث عن الهوى الى الموضع المناسب إن شاء اللّه .

العجب و«الأنا»

مصدر العجـب «الأنا» ولا محالـة يكون عـلاج العجب في عـلاج «الأنا» إذن المسألة الاساسية في المرض والعلاج هو «الأنا» .

فلنتأمل إذن فـي «الأنا» . للانا حالتـان : في الحالة الاولى يتمحـور الأنا حول نفســه ، ويستقطب كـل جهـد صـاحبه وحـركتـه وكل حبـه وبغضـه وكـل مشاعـره و إهتماماته .

وفي الحاّلـة الثانية تكون مـرضاة اللّه هي المحـور لكل حركة الانســان ونشاطه و إهتمامه ، «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين» .

في الحـالة الاولى يسقـط الانسان وفي الحـالة الثـانية يعرج الانســان . ومرض العجب بعض أعراض الحالة الاولى وعلاج هـذا المرض وسائر الامراض الناشئة من مركزيـة «الأنا» في الحالـة الثانية . فاذا فك الانســان إرتباطه من «الأنـا» وربط نفسه بمحور اللّه تعالـى وذكره ورضاه يخلص من العجب كما يتخلـص من كل الاعراض والامراض الكثيرة الاخرى التي تنشأ من حالة محورية الأنا .

وهذه الحالة مـن الاستكبار ومحورية «الأنا» هو الذي منع إبليـس لعنه اللّه من الاستجابة لأمر اللّه تعـالى في السجود لآدم **﴿قال يـاإبليس ما منعك أن تسجـدَ لِما خلقتُ بيديَّ استكبرتَ أم كنـتَ من العالين*قال أنا خير منه خلقتنـي من نار وخلقته من طين﴾** .

وفي الخطاب الالهي لابليس من العناية بخلق آدم «لما خلقت بيدي». ومن الانكار الساخر على إبليس «إستكبرت أم كنت من العالين» ما لا يخفى على الذي يمعن النظر في هذا الخطاب.

وصياغة الآية دقيقة ومعبرة، فهي تبرز «الأنا» بشكل صارخ في جواب إبليس عن السبب الذي منعه من السجود «ما منعك أن تسجد؟ قال أنا».

وينحدر اللعين من «الأنا» الى الحسد. فلا يطيق أن يرى هذه الميزة لآدم عليه السلام من دونه فيحسده، وهذا هو الانحدار الاول.

ويشق عليه أن يستجيب لأمر اللّه تعالى في السجود لآدم، فيتمرد على أمر اللّه تعالى ويمتنع عن الاستجابة له. وهذا هو الانحدار الثاني، وهو نهاية السقوط في حياة هذا اللعين.

وإبتلاء قارون أيضاً في هذه الأنانية الطاغية **﴿قال إنَّما أوتيتُه علىٰ علم عندي﴾**(القصص: ٧٨). فلا يرى قارون لله تعالى فضلاً عليه فيما عنده من الكنوز حتى يحاسبه عليه ويطلب منه الانفاق منها، وإنما هي له خاصة، تجمعت عنده على علم عنده وجهد له. إذن نقطة الضعف في شخصية قارون هي «الأنا» ومن خلال هذه النقطة إندس الشيطان اليه، ودعاه الى التمرد على اللّه تعالى ورسوله.

ويبرز الأنا بصورة صارخة في حياة فرعون **﴿فحشر فنادىٰ*فقال أنا ربُّكم الأعلىٰ﴾**(النازعات: ٢٤)، وهذه واحدة من أقبح حالات الاستعلاء للانا.

وهذه الحالة من الأنانية الطاغية تؤدي بصاحبها الى إستضعاف الآخرين وإستخفافهم وإذلالهم للتمكن منهم وفرض نفوذه وسيطرته عليهم. **﴿فاستخفَّ قومه فأطاعوهُ﴾**. (الزخرف: ٥٤)

وهذا هو الوجه الممقوت والقبيح من الأنا، والى هذا الوجه تعود طائفة كبيرة من المشاكل والمتاعب والمصائب والابتلاءات في حياة الانسان.

والوجه الآخر للانا هو وجه العبودية والارتباط والانشداد باللّه تعالى.

والأنا-في هذا الوجه الآخر-لا يكون محوراً لحركة الانسان وجهده ونشاطه وحبه

وبغضه، وإنما يتحول الانسان من «الأنا» الى محور مرضاة اللّه تعالى وقربه، ويكون مرضاة اللّه هو غاية الانسان في حركته ونشاطه وهو الاساس والمحور في حبه وبغضه.

يقول تعالى فيما يوجه به عبده ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **﴿قل إنّني هدٰني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قِيّماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين*قل إنّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي للّه ربّ العٰلمين*لا شريك له وبذٰلك أمِرتُ وأنا أوّل المُسلمين﴾**(الانعام: ١٦١-١٦٣)، وهذا هو الوجه المقبل على اللّه تعالى من «الأنا» فيما كان الوجه الاول هو الوجه المعرض عن اللّه تعالى من الأنا.

الدوائر الاربعة للانا

وكما ينشيء الانسان العلاقة مع الآخرين تتصف بالحب والبغض والانسجام والتناقض والتعاون والتواكل، كذلك للانسان دوائر أُخر من العلاقات على نفس الترتيب مع اللّه تعالى ومع نفسه ومع الدنيا.

وهذه أربعة دوائر للعلاقات يدخل فيها الأنا بالصورة التالية:

١- علاقة الأنا باللّه تعالى.

٢- علاقة الأنا بالآخرين.

٣- علاقة الأنا بالدنيا «الاشياء».

٤- علاقة الأنا بنفسه.

ونمط علاقة الأنا في كل من هذه الدوائر الاربعة يختلف إختلافاً جوهرياً وعميقاً في الحالة الاولى «حالة محورية الأنا» عن الحالة الثانية «محورية اللّه تعالى».

وطائفة واسعة من مصائب الانسان وإبتلاءاته ومشاكله هي من إفرازات «الأنا» عندما يتحول «الأنا» في حياة الانسان الى محور من دون اللّه تعالى. فيكون من إفراز «الأنا» في هذه الحالة في علاقة الانسان باللّه تعالى التكبر على اللّه، والتمرد على

اللّه والشرك والكفر. ومن إفراز «الأنا» في علاقة الانسان بالآخرين: نظام الاستكبار والاستضعاف في العلاقات الاجتماعية، والحسد، والعدوان، والبغضاء، والكراهية فيما بين الناس. ومن إفراز «الأنا» في هذه الحالة في علاقات الانسان بالدنيا: الحرص والطمع، والجشع. ومن إفراز الأنا في علاقته بنفسه: العجب، الغرور والاعتداء بالنفس وتزكية النفس وتبرئتها عن الخطأ والتقصير.

بينما نجد أن إفراز الأنا ونتائجه عندما يجعل الانسان مرضاة اللّه تعالى في حياته هي المحور ويجعل الأنا تابعاً لهذا المحور أمر يختلف تماماً في النقاط التي ذكرناها في هذه الشبكة الواسعة من العلاقات.

وهذا إجمال لابد له من تفصيل، وهذا التفصيل يرتبط بموضوع بحثنا إرتباطاً وثيقاً، لابد من الدخول فيه.

واليك هذا التفصيل:

عندما يتحول «الأنا» في حياة الانسان الى محور يستقطب كل مشاعره وإهتماماته يصدق على هذا الانسان أنه إتخذ «الأنا» إلهاً. ويتحول «الأنا» الى صنم في حياته يعبده الانسان من دون اللّه. وبقدر ما يبرز «الأنا» إلهاً في حياة الانسان يضمر إحساس الانسان بإلوهية اللّه تعالى في حياته.

وبين هذا وذاك نسبة عكسية دائماً فكلما تبرز إلوهية الأنا أو الهوى في حياة الانسان أكثر يختفي التوحيد أكثر. فإن التوحيد يقع في النقطة المقابلة لمحورية الأنا تماماً. وكلما تتكرس حالة محورية الأنا في حياة الانسان تختفي حالة «التوحيد».

والمرحلة الاولى لهذا البروز والاختفاء «الشرك» حيث يشرك الانسان باللّه تعالى، والشريك الذي يشركه الانسان في الالوهية هو «الأنا» والمرحلة الاخيرة لهذا البروز والاختفاء هو «الكفر» حيث يغطي «الأنا» ذكر اللّه تعالى في قلب الانسان بشكل كامل، و«الكفر» بمعنى التغطية، فتبرز محورية «الأنا» في حياة الانسان بصورة طاغية ويختفي «التوحيد» تماماً من نفس الانسان وهذه هي التي ينتهي اليها الانسان غالباً عندما يستدرجه حب الذات.

وهذا «الكفر» من الكفر في مقام العمل، وليس من الكفر في «العقيدة». وقد يختلفان فيبقى الانسان في العقيدة مؤمناً باللّه تعالى خالقاً ورازقاً ورباً، ولكنه في مرحلة العمل ينسى اللّه تعالى ويُنْكره تماماً في إهتماماته وجهده وحركته ومشاعره ويتحرك حول نفسه، ويتحول من محور «اللّه» الى محور «الأنا» وينفك تماماً عن المحور الاول، ويرتبط تماماً بالمحور الثاني.

وهذا الكفر في التعامل قد يستتبع الكفر في العقيدة، وقد يفارق الكفر في العقيدة ولكن القرآن يحكم عليه بالكفر، كما يحكم على الحالة الاولى منها بالشرك.

قصة صاحب الجنتين

وفي قصة صاحب الجنتين، في سورة الكهف نلتقي نحن هذه الحالة من الكفر المستبطن في التعامل.

ولنقرأ هذه القصة في سورة الكهف﴿**واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنَّتين من أعنـٰب وحففنـٰهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعاً*كلتَا الجنتَّين ءاتت أُكُلَها ولم تظلم منه شيئاً وفجَّرنا خلـٰلَهُما نهراً*وكان له ثمر فقال لِصـٰحِبِه وهو يحاوِرُه أنَا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً*ودخل جنَّته وهو ظـٰلمٌ لنفسه قال ما أظنُّ أن تبيد هـٰذه أبداً*وما أظنُّ السّاعة قائمةً ولئن رُدِدتُ إلىٰ ربّي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً*قال له صـٰحبُه وهو يحاوره أكفرتَ بالّذي خلقك من تراب ثمَّ من نطفة ثم سوّىٰك رجلاً* لكنَّا هو اللّه ربّي ولا أشرك بربّي أحداً*ولولا إذ دخلتَ جنَّتك قلتَ ما شاء اللّه لا قوّة إلاّ باللّه إن تَرَنِ أنَاْ أقلَّ منك مالاً وولداً*فعسىٰ ربّي أن يؤتيَنِ خيراً من جنَّتك وَيُرسِلَ عليها حُسبـٰناً من السَّماء فتُصبِحَ صعيداً زَلَقاً*أو يُصبِحَ ماؤُها غَوراً فلن تستطيع له طلباً*وأحيط بثمره فأصبح يقلِّبُ كفَّيه علىٰ ما أنفق فيها وهي خاوية علىٰ عروشها ويقول يـٰلَيتني لم أشرِكْ بربّي أحداً*ولم تكن له فئةٌ ينصرونه من دون اللّه وما كان منتصراً*هنالك الوَلـٰيَةُ للّه الحقُّ هو خير ثواباً وخير عُقباً**﴾. (الكهف: ٣٢-٤٤)

ولنتأمل في هذه الآيـات فإنها غنية بالمفاهيم والافكار، وأول مـا يلفت نظرنا في هذه الآيات تأكيد القرآن على ربط هذه النعـم باللّه تعالى: «جعلنا لأحدهما جنتين» «وفجرنا خلالهما نهراً».

ولا شك أنها عناية مقصودة في بدايـة القصة. وهو أحد الاتجاهين المختلفين في الحوار الذي يجري في جو هذه القصة في سورة الكهف.

وهذا الاتجـاه هو ربـط كل نعمـة وموهبة وخيـر ورزق في حيـاة الانسان بـاللّه تعالى، والتأكيد على هذا الربط، في مقابل الاتجاه الآخر الذي نقرأه في هذه القصة وهو فك إرتباط النعم عـن اللّه تعالى وربطها بالانسان وإعتبار الانسـان هو صاحب هذه النعم ووليها.

ويبرز هذا الاتجاه في الحوار الذي يجري في القصة في كلمة صاحب الجنتين لصاحبه، وهـو يحاوره: «أنا أكثر منك مالاً وأعـز نفراً» فالمال والنفر العزيـز للانا، وليس لإرتباطهما باللّه تعالى ذكر أو إشارة.

ومـن عجب أن هـذه النعم المـوصولـة باللّـه تعالـى بدل أن تتحـول في نفـس صاحـب الجنتين الى إحسـاس بالشكـر والتواضع للـه تعالى تتحـول في نفسـه الى طغيان للانانية وبروز صارخ للانا أولاً ثم الـى تكاثر وتفاخر ومباهاة: «فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً».

وسبب بـروز «الأنا» وطغيـانه عنـد صاحـب الجنتين ليـس هو «النعمـة» وإنما طريقة فهمـه للنعمة وعلاقة النعمة بـه. إن النعمة عنده له، وهو وليهـا، وليس لأحد فضل عليـه فيها، بعكس التصور الـذي يقدمه القران لعـلاقة الانسان بالنعمـة والتي أشرنـا اليها قـريباً. فـإن النعمة، بنـاء على التصـور القرآنـي لله وهـو وليها، وليـس لصاحـب النعمة فيها شـأن أو فضل، إلا أن اللّه تعالـى أودعها عنده وجعلـه خليفة عليها.

وهذان التصـوران مفتاحـان لنمطين مـن الشخصية يشيـر اليهما الحـوار الذي يجري في سـورة الكهف في قصة صاحـب الجنتين. ولكل من هـاتين الشخصيتين

طريقته وإسلوبه في فهم النعمة والتعامل معها. في النمط الاول من الشخصية، وهو النمط القرآني، يتكرس إرتباط النعمة باللّه تعالى وهو بمعنى فقر الانسان الى اللّه تعالى ولي النعمة، ولذلك فإن السمة البارزة في هذه الشخصية هي «الفقر» الى اللّه تعالى، يقول اللّه تعالى: ﴿يـٰأيُّها النّاس أنتم الفُقَراء إلى اللّه واللّه هو الغنيُّ الحميدُ﴾. (فاطر: ١٥)

وأروع تصوير لهذه الحالة من «الأنا» ورد في القرآن في قصة موسى بن عمران عليه السلام عندما وقف في الظل يستريح بعدما سقى لإبنتي شعيب: ﴿ربِّ إنّي لما أنزلتَ إليّ من خير فقير﴾(القصص: ٢٤) والأنا في هذه الاية الكريمة تقع بين نعمة نازلة من اللّه «لما أنزلت اليّ» وفقر صاعد الى اللّه «فقير». أحدهما ينتهي الى الانسان من اللّه تعالى وهو النعمة والرحمة والآخر ينطلق من الانسان الى اللّه وهو الفقر. و«الأنا» بين هذا الخط الصاعد والخط النازل.

وهذا هو الوضع الصحيح للانا في الارتباط بالنعمة، والنمط القرآني للشخصية.

وهذا النموذج من الشخصية بارز كل البروز في الحوار الوارد في قصة صاحب الجنتين، كما سيتضح أكثر فيما بعد إن شاء اللّه.

والنمط الآخر من الشخصية هو النمط الأناني، وفيها يتكرس إرتباط النعمة بالأنا وتختفي علاقة النعمة باللّه تعالى، فتكون النعمة في حياة الانسان من علامات «الغنى»، وليس «الفقر» وكلما يزداد حظ الانسان من النعمة يشعر بالاستغناء أكثر من ذي قبل.

والاحساس بالغنى سبب الانفصال عن اللّه، كما أن الاحساس بالفقر سبب الارتباط باللّه تعالى.

وفي حالة الاحساس بالغنى والانفصال عن اللّه يبرز الأنا ويطغى، كما أن الأنا في حالة الاحساس بالفقر والارتباط باللّه يختفي ويضمر.

وصدق اللّه تعالى حيث يقول: ﴿كلاّ إنَّ الإنسـٰن ليطغىٰ*أن رآهُ

استغنىٰ﴾ . (العلق : ٦)، وهذه الآية تصور بصورة واضحة ودقيقة كيف تتحول النعمة في حياة الانسان الى إحساس بالغنى وشعور بالانفصال عن اللّه وبالتالي الطغيان. وهذه الحالة من الأنانية وبروز الأنا وما يستتبعه من التباهي والتفاخر والتكاثر ظاهر في هذه الفقرة من الحوار الوارد في القصة : «أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً». ومكافحة هذه الحالة من الطغيان بتكريس الفقر الى اللّه وتحجيم الأنا وتحديده والمنع من بروزه.

وفي التصور الذي يقدمه الينا القرآن عن «الأنا» وطريقة التعامل معه يعتبر إطلاق العنان للانا من الظلم الذي يمارسه الانسان على نفسه، حيث يقطع الانسان نفسه عن اللّه. وهو من أقبح أنواع الظلم الذي يمارسه الانسان على نفسه.

ولذلك فإن القرآن يقول عن صاحب الجنتين : «ودخل جنته وهو ظالم لنفسه».

ولهذا الظلم وجهان إثنان : الوجه الاول الانشداد الى متاع الحياة الدنيا، وطول الامل فيه، حتى كأنه لا يبيد ولا يفنى : «قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً». وهو أمر طبيعي، فإن الانسان اذا شد كل حبال نفسه بالدنيا ود لو لم ينقطع عن الدنيا، وتبقى له ولا تبيد، وهو بمعنى طول الامل. والوجه الثاني : قطع الرجاء والامل عن اللّه في مقابل طول الامل بالدنيا، حتى كأن الساعة لا تقوم، والى هذا الاحساس الباطني المكتوم تشير الآية الكريمة «وما أظن الساعة قائمة».

وهذان وجهان لحقيقة واحدة، لا يمكن التفكيك بينهما.

والفصل الاخير من مأساة «الأنا» في هذا الحوار. إن الانسان عندما يسترسل في الطغيان، يتحول عنده بالتدريج الشعور بالفقر الى اللّه الى إحساس بالاستحقاق على اللّه.

«ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً» فهو يفترض أنه في الآخرة-لو قامت الساعة-لا يقل مالاً وولداً عنه عن الدنيا، بل يجد فيها خيراً مما يملك في الدنيا منقلباً.

وليس يطلب ذلـك من اللّه تعالـى، ولا يرجوه، ولا يسعى لتحصيلـه سعياً في الدنيا، وإنما يفترض أنه يستحق ذلك على اللّه إستحقاقاً.

ولا يخفى فـي نفس الـوقت شكه فـي أن تقوم الساعـة «ولئن رددت الـى ربي» وينتهي هذا الطرف من الحوار هنا، ويبدأ ذكر الطرف الآخر من الحوار، وهو نموذج آخر من الشخصيـة يختلف عن النموذج الاول في مكـوناته ومنطلقاته. فلنتـأمل في هذا الشطر الآخر من الحـوار «قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بـالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّيٰك رجلاً».

وهذه أبرز نقطـة تلفت النظر في هذا الحـوار: فلم يسبق من صـاحب الجنتين إنكار لله تعالى بـالصراحة، عدا ما سبق منه من التشكيك فـي أن تقوم الساعة. فما مصدر هذه النسبة التـي ينسبها اليه صاحبه المؤمن الذي يحـاوره. إن هذا الكفر هو كفر بـاللّه تعـالى فـي مقام التعامـل، يستبطنه المـوقف العملـي لصاحـب الجنتين وطريقة تعامله مع نعم اللّه تعالى.

إلا أن صاحب الجنتين يحاول أن يتكتم عليه ويخفيـه ويحاول صاحبه المؤمن الذي يحاوره أنّ يجابهه به علانية، ويقرعه به ليردعه عنه.

وهذه هي الحقيقة التي أكدناها من قبل، فإن في كل بروز للانا إختفاء للتوحيد في علاقة الانسان باللّه. والمرحلة الاولى منه الشرك والمرحلة الاخيرة الكفر.

ولنتـأمل فـي البقيـة مـن هذا الحـوار: ﴿**لكنَّـاْ هو اللّـه ربّـي ولا أشـرك بربّـي أحداً*ولولا إذ دخلتَ جنَّتك قلتَ ما شاء اللّه لا قوَّة إلاّ باللّه إن تَرَنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولداً*فعسىٰ ربّـي أن يؤتِيَنِ خيراً مـن جنَّتك**﴾. وهذا شطـر آخر من الخـلاف في طريقـة التعامل مع الأنـا من هذيـن النموذجين مـن الشخصية فاذا كان «الأنـا» أبرز شيء في كـلام المحاور الاول، فإن «الأنا» هنـا يختفي، ويبرز التوحيـد بشكل بارز «لكنا هو اللّه ربي».

والفرق بين «الأنا» في كلام هذا وذاك هو مفتاح فهم كل من هاتين الشخصيتين وأساس الفـرق بينهما «أنا أكثر منـك مالاً وأعز نفـراً» «لكنا هو اللّه ربـي». واذا كان

المحاور الاول ربط النعمة مباشرة بنفسه، وكأنه وليها ومالكها الحقيقي نجد أن المحاور المؤمن يربط هذه النعمة بمشيئة اللّه تعالى وقوته «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه».

واذا كان أمل المحاور الاول وثقته فيما يفنى ويبيد من متاع الدنيا، فإن ثقة المحاور المؤمن فيما يبقى ولا يزول من الامل برحمة اللّه «فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك».

علاقة «الأنا» بالآخرين

هذا في علاقة «الأنا» باللّه تعالى، وأما في علاقة «الأنا» بالآخرين فإن أكثر مآسي الانسان وشقائه في علاقته بالآخرين يعود الى «الأنا» و «الهوى» كما أن أكثر شقاء الانسان في علاقته باللّه تعالى هو كذلك في «الأنا» و «الهوى».

نحن نتحدث هنا عن بؤس الانسان في علاقته بالآخرين بقدر ما يتعلق الامر بـ«الأنا» كما تحدثنا قبل هذا عن بؤسه في علاقته باللّه تعالى في نفس الحقل.

إن حالة التكريس والاستعلاء للانا تؤدي في شبكة العلاقات الاجتماعية الى حالتي الاستكبار والاستضعاف في علاقة الناس بعضهم ببعض في المجتمع. وضمن هذه العلاقة يحاول كل فرد أن يفرض نفوذه وهيمنته على الآخرين. ولكي يحقق هذه الغاية يستضعف الآخرين ويستخفهم ليتمكن من فرض نفوذه عليهم. يقول تعالى عن علاقة فرعون بقومه «فاستخف قومه فاطاعوه».

وبهذه الطريقة يتكون في المجتمع نظام من العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يقوم على أساس الاستكبار والاستضعاف. وهو أساس لكثير من الفساد على وجه الارض.

كما أن حالة التكريس والاستئثار والمحورية للانا تؤدي الى طائفة من المتاعب الاجتماعية والاخلاقية في حياة الانسان في علاقاته بالآخرين كالعدوان والحسد «تمني إزالة النعمة عن الآخرين»، والكراهية والبغضاء والاستئثار وسوء الظن

والارتياب وفقدان الثقة فيما بين الناس، وحب البروز والاشتهار و إستراق الاضواء عن الآخرين.

وهذه المفاسد وغيرها في العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي حصيلة حالة الاستعلاء والتكريس والاستئثار للانا.

علاقة الانسان بنفسه

وأما علاقة الانسان بنفسه فهي علاقة معقدة شديدة التعقيد، أشرنا اليها سابقاً إشارة سريعة.

وهذه العلاقة قد تقوم على أساس من إنبهار الانسان بنفسه فيما آتاه اللّه من ملكات ومواهب وفيما يفعله ويقوله وهو جانب من العجب. وقد تقوم على أساس من الترفع عن النقد ورفض الاعتراف بتقصير أو خطأ في قول أو فعل و«تزكية النفس» وتبرأتها وهو الجانب الآخر من العجب.

علاقة الانسان بالدنيا

وفي دائرة علاقة الانسان بالدنيا ومغرياتها تؤدي هذه الحالة الى الحرص والجشع و«جوعة الدنيا» والنهم الذي لا يشبعه شيء. وقد روي عن رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لو كان لإبن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف إبن آدم إلا التراب» ... (١)

النهاية

والنتيجة والعاقبة التي ينتهي اليها جميع أولئك الذين يتخذون «الأنا» إلهاً ومحوراً في حياتهم من دون اللّه تعالى هي الانغلاق الكامل على آيات اللّه تعالى

(١) أحياء العلوم للغزالي ٣/ ٢٣٨.

والطبع والرَّيْن على القلوب.

يقول تعالى: ﴿ سأصرف عن ءَاياتيَ الَّذين يتكبَّرون في الأرض بغير الحقِّ﴾.

ويقول تعالى: ﴿ كذٰلك يطبع اللّه علىٰ كلِّ قلب متكبِّرٍ جبارٍ﴾.

تعديل الأنا

وبعد هذه الجولة في أعراض «الأنا» عندما يتخذ الانسان «الأنا» محوراً وإلهاً في حياته من دون اللّه، نبحث عن الوسائل التي يقدمها الأسلام في منهاجه التربوي لتعديل «الأنا» في حياة الانسان.

فإن الاسلام لا يؤمن بمبدأ إلغاء «الأنا» كما لا يؤمن بمشروع إلغاء «الهوى».

والمنهج الذي يقره الاسلام في «الأنا» و «الهوى» هو التعديل وليس الالغاء.

ولابد أن نبحث عن الوسائل التي يقدمها الاسلام في منهجه التربوي لتعديل «الأنا»، أما تعديل الهوى فهو أمر خارج عن إختصاص هذه المقالة نُحيلة الى مواضعه من الدراسات الاخلاقية والنفسية في الاسلام.

وتعديل «الأنا» هو علاج العجب بشكل دقيق، فإن مشكلة «العجب» تكمن في «الأنا» وبالضرورة يكون علاج هذه المشكلة في تعديل الأنا وتلطيفه.

ويتم تعديل الأنا بصورة كاملة، في التربية الاسلامية ضمن تحديد وتنظيم علاقة الأنا باللّه تعالى وعلاقته بالآخرين وعلاقته بنفسه.

وقد أولى الاسلام هذه الدوائر الثلاثة من العلاقات في حياة الاسان إهتماماً كبيراً. واذا قدر للانسان أن ينظم علاقاته مع اللّه ومع الآخرين ومع نفسه ومع الدنيا بالطريقة التي يشرحها ويوضحها الاسلام، يسلم من كل الاعراض التي تصيب الانسان من ناحية «الأنا» والعجب من أهم هذه الامراض.

ونحن فيما يلي نحاول إن شاء اللّه أن نطرح النظرية الاسلامية في علاقة الأنا باللّه تعالى وبالآخرين وبنفسه.

علاقة «الأنا» باللّه تعالى

الانماط الثلاثة للعلاقة باللّه :

علاقة «الأنـا» باللّه تعالى من الامـور الدقيقة التي تعطيها النصـوص الاسلامية إهتماماً كبيراً .

فهناك أنماط من العلاقة باللّه تعالى تقوم على أساس الطغيان على اللّه وتجاوز حدود العبـودية ، والقـرآن يسمي هـذه العلاقـة بالطغيـان ، يقول تعـالى : ﴿**كلاّ إنَّ الإنســٰن لَيطغـىٰ*أن رآه استغنـىٰ**﴾(العلـق : ٦) ، ﴿**فأمّـا من طغـىٰ*وءَاثَرَ الحيـوٰة الدُّنيا*فإنَّ الجحيـم هي المأوىٰ**﴾(النازعات : ٣٧-٣٩) ، ﴿**فنذرُ الَّذيـن لا يرجون لقاءنا في طغيـٰنهم يعمهون**﴾ . (يونس : ١١)

وللطغيان في حياة الانسان صور ومصاديق كثيـرة منها الخصومة مع اللّه تعالى ﴿ **أولم يرَ الإنسـٰن أنّا خلقنـٰه من نطفة فإذا هو خصيمٌ مبينٌ**﴾(يس : ٧٧) ، ومنه الصد عن سبيل اللّه : ﴿**إنَّ الَّذين كفروا ينفقـون أموالهم ليصدّوا عن سبيل اللّـه فسيُنفِقونها ثمَّ تكون عليهم حسرةً ثمَّ يُغلَبون ...** ﴾ . (الانفال : ٣٦)

ومنه محاربـة اللّه ﴿**والَّذين اتَّخـذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بيـن المؤمنين وإرصاداً لمن حارب اللّه ورسوله**﴾ . (التوبة : ١٠٧)

ومنــه محــادة اللّــه ﴿**إنَّ الَّــذيـن يحــادّون اللّــه ورســولَـه أولئــك فــي الأذلّين**﴾ . (المجادلة : ٢٠)

ومنه مشاقة اللّه ﴿**ذٰلك بأنَّهم شاقّوا اللّه ورسوله ومن يشاقِقِ اللّه ورسوله فإنَّ اللّه شديدُ العقابِ**﴾ . (الانفال : ١٣)

وهناك نـوع آخر من العـلاقة باللّـه قائمة علـى أساس الادلال والمنّ علـى اللّه ورسوله ﴿**يَمُنّون عليك أن أسلمـوا قل لا تَمُنّوا عليّ إسلـٰمَكم بلِ اللّـه يَمُنُّ عليكم أن هدٰيكم للإيمـٰن إن كنتم صـٰدقين**﴾ . (الحجرات : ١٧)

والنوع الثالـث من العلاقة بـاللّه تعالى قائمـة على أساس العبوديـة لله والحب والذكر والخوف والرجاء والطاعة والخشـوع والخضوع والاخبات لله . وموقع الأنا في

هذه العلاقة من اللّـه تعالى هو موقع التذلل والعبودية والخشـوع وليس موقع الطغيان والخلاف ولا موقع الادلال والمن.

وهذه هي العلاقة الصحيحة للانا مع اللّه تعالى. وهذه العلاقة تحمي الانسان من إلعجب، وتمنـع من حالة تـورم للانا، وتحدد المـوضع الصحيح للانـا من اللّه تعالى والحجم الحقيقي للانا.

عناصر العلاقة باللّه

والنصوص الاسـلامية تعطي للعـلاقة باللّـه تعالى إهتمـاماً كبيراً، وتعتبـر هذه العـلاقـة هـي الاسـاس والمحـور للشخصية الاسـلاميـة، وتحـدد الابعـاد الاخـرى للشخصية الاسلامية على ضوء هذه العلاقة. والعناصر التي تتألف منها علاقة العبد باللّه تعالى مجموعة متناسقة من النقاط يتألف منها طيف منسجم ومتناسب ومتعادل في العلاقة باللّه تعالى.

ودراسة هذا الطيف وتحليله يحتاج الى فرصة ودراسة أوسع من هذا المقال.

إلا أننا سوف نحاول أن نشيـر الى مجموعة من النقاط التي تتألـف منها العلاقة باللّـه تعالـى. من خلال النصـوص الاسلاميـة في القرآن والحـديث. وإليكـم هذه الاضمامة من عناصر العلاقة باللّه تعالى:

١ - الخوف والخشية من اللّه:

يقول تعالى: **﴿وأمّا من خاف مقام ربّه ونَهَى النَّفـس عن الهوىٰ*فإنَّ الجنَّة هي المأوىٰ﴾**(النازعات: ٤٠) **﴿فلا تخشَوهم واخشَوني﴾**. (البقرة: ١٥٠)

٢ - التضرع:

﴿تدعـونه تضرُّعـاً وخفيةً﴾(الانعام: ٦٣) **﴿واذكـر ربَّك فـي نفسـك تضرُّعـاً وخيفة﴾**.(الاعراف: ٢٠٥)

٣- الأنابة :

﴿وأنيبوا إلىٰ ربّكم ﴾(الزمر : ٥٤) ﴿خرَّ راكعاً وأنابَ﴾ . (ص : ٢٤)

٤- الاخبات : «التواضع والخشوع»

﴿إنَّ الَّذين ءَامنوا وعملوا الصّـٰلحـٰت وأخبتوا إلىٰ ربّهم أولئك أصحـٰب الجنَّة ... ﴾(هود : ٢٣) ﴿ وبشِّر المخبتينَ﴾ . (الحج : ٣٤)

٥- الحب :

﴿قل إن كان ءَاباؤكم وأبناؤكم ... أحبَّ إليكم من اللّه ورسوله وجِهـٰدٍ في سبيله فتربَّصوا حتّىٰ يـأتيَ اللّه بأمره واللّه لا يهدى القوم الفـٰسقين﴾(التوبة : ٢٤) ﴿والَّذين ءَامنوا أشدُّ حباً للّه﴾ . (البقرة : ١٦٥)

٦- التقوى :

﴿اتَّقِ اللّه ولا تُطعِ الكـٰفرينَ ... ﴾ . (الاحزاب : ١)

٧- الاستغفار:

﴿ ... واستغفروا اللّه إنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ﴾ . (البقرة : ١٩٩)

٨- التوبة :

﴿فتوبوا إلى بارِئكم﴾(البقرة : ٥٤) ﴿ويـٰقوم استغفروا ربّكم ثمَّ توبوا إليه﴾ . (هود : ٥٢)

٩- الاعتذار والندم :

«اللّهم عظم بلائي وأفرط بي سوء حالي وقصرت بي أعمالي وقعدت بي

أغلالـي وحبسني عن نفعـي بعد أملي ، وخدعتنـي الدنيا بغـرورها ونفسي بجنـايتها ومطالي يا سيدي» ... دعاء كميل

١٠-١٢ - «الانكسار» ، «الاستقالة» ، «الاقرار والاذعان والاعتراف» :

«أتيتـك يا الهـي بعـد تقصيري وإسـرافـي علـى نفسي معتـذراً نـادماً منكسـراً مستقيلاً ، مستغفراً منيبـاً ، مقراً ، مذعناً ، معترفـاً لا أجد مفراً مما كان منـي ولا مفزعاً أتوجه اليه في أمري غير قبولك عـذري ... اللّهم فأقبل عذري وارحم شدة ضري» ... دعاء كميل

«أنت الساتر عورتي والمؤمن روعتي والمقيل عثرتي» ... دعاء الاسحار

١٣- الذل والمسكنة والاستكانة بين يدي اللّه :

«هذا مقـام العائذ بك من النـار. هذا مقام المستجيـر بك من النار. هـذا مقام المستغيث بـك من النار. هـذا مقام الهارب اليـك من النار. هـذا مقام من يبـوء لك بخطيئته ويعترف بذنبه» ... دعاء الاسحار

١٥-١٦ - «البكاء» ، «الاستغاثة والتوسل الى اللّه» :

«فبعزتـك يا سيدي أقسـم صادقـاً لئن تركتـي ناطقاً لأضجـن اليك بيـن أهلها ضجيج الآملين ، ولأصرخن اليك صراخ المستصرخيـن ولأبكين عليك بكاء الفاقدين ولأنادينك أيـن كنت يا ولي المؤمنين يـا غاية آمال العارفين يـا غياث المستغيثين ... أفتراك سبحانك ... تسمع صوت عبد مسلم سجـن فيها بمخالفته وذاق طعم عذابها بمعصيته وهـو يضج اليـك ضجيج مؤمـل لرحمتـك ويناديك بلسـان أهل تـوحيدك ويتوسل اليك بربوبيتك» ... دعاء كميل

١٧ - «الفقر الى اللّه» :

«يـا الهي وسيـدي ومولاي ومـالك رقـي يا مـن بيده نـاصيتي يـا عليماً بضـري ومسكنتي يا خبيراً بفقـري وفاقتي» . أنا الصغير الذي ربيته وأنا الجـاهل الذي علمته وأنا الضال الذي هديته وأنا الوضيع الذي رفعته وأنا الخائف الذي آمنته» .

«فاليك يا رب نصبت وجهي واليك يا رب مددت يدي» .

١٨ - الاستجارة باللّه واللواذ باللّه :

«أجرنا مـن النار يا مجير» دعاء المجيـر. «هذا مقام المستجير بـك من النار» . «وأنت جار من لاذ بك» دعاء يستشير «وقد خضعت بالأنابة اليك ودعوت بالاستكانة لديك فإن طـردتني من بابك فبمن ألـوذ و إن رددتني عن جنابك فبمن أعـوذ» مناجاة التائبين .

١٩ - الفرار الى اللّه :

﴿ **ففرّوا إلَى اللّه إنّي لكم منه نذيرٌ مبينٌ**﴾ . (الذاريات : ٥٠)

٢٠ - الاضطرار الى اللّه :

﴿**أمَّن يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويكشفُ السّوء**﴾ . (النمل : ٦٢)

٢١ - الحياء من اللّه :

«أنا يـا رب الذي لم أستحيـك في الخلاء ولـم أراقبك فـي الملأ أنا صـاحب الدواهي العظمـى أنا الذي على سيده إجتـرى أنا الذي عصيت جبـار السماء ... أنا الذي أمهلتني فما إرعويت وسترت عليّ فما إستحييت» أبو حمزة .

٢٢- التملق الى اللّه :

«الهي أتـراك بعد الايمان بـك تعذبني أم بعـد حبي إيـاك تبعدني أم مـع رجائي لرحمتك وصفحك تحرمنـي أم مع إستجارتي بعفوك تسلمني حاشا لـوجهك الكريم أن تخيبني ... الهي هل تسوِّد وجوهاً خـرت لعظمتك ساجدة أو تخرس ألسناً نطقت بـالثناء علـى مجدك وجـلالك أو تطبـع على قلـوب إنطوت علـى محبتك أو تصـم أسماعاً تلذذت بسماع ذكرك أو تغل أكفاً رفعتها الآمال اليك رجاء رأفتك .

الهي لا تغلق علـى موحديك أبـواب رحمتك ولا تحجب مشتاقيـك عن النظر الى جميل رؤيتـك» مناجاة الخائفين ، «يـا اللّه لا تحرق وجهي بالنـار بعد سجودي وتعفيري بغير منّ عليك بل لك الحمد والمنّ والفضل» دعاء الاسحار .

٢٣- الالتماس والترجي :

«الهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قـريته ، ومن الذي أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته» مناجاة الراجين .

٢٤- تحسيس النفس بالتقصير:

«وهـذا مقام مـن إعترف بسبـوغ النعمـاء وقابَلها بـالتقصير وشهـد على نفسـه بالاهمـال والتضييع . الهـي تصاغـر عند تعـاظم ألائك شكـري وتضاءَل فـي جنب إكرامك إياي ثنائي ونشري» مناجاة الشاكرين ، «يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير إقبل مني اليسير واعـف عني الكثير» دعاء الاسحار «أفبلسانـي هذا الكال أشكرك أم بغاية جهدي في عملي أرضيك وما قدر لساني يا رب في جنب شكرك وما قدر عملي في جنب نعمك وإحسانك» أبو حمزة .

هذه طائفة من العناصر التي تولف العلاقة باللّه تعالى إستخرجناها من نصوص القرآن والحديث والدعاء وهذه بمجموعها تـؤلف طيفاً زاهياً منسجماً ومتوازناً للعلاقة باللّه تعالى .

٢٥- الذكر:

﴿الَّـذيــنءَامنـوا وتطمئِــنُّ قلـوبُهــم بــذكــر اللّـه ألا بــذكــر اللّــه تطمئِـنُّ القلوبُ﴾. (الرعد: ٢٨)

﴿يـٰأيُّها الَّذين ءَامنوا لا تُلهِكم أموالكم ولا أولـٰدُكم عن ذكر اللّه ومن يفعل ذٰلك فأولئك هم الخـٰسِرون﴾. (المنافقون: ٩)

٢٦- الأنس باللّه:

«وهب لـي الانس بك وبأوليـائك وبأهل طـاعتك. إجعل سكون قلبـي وأنس نفسي وإستغنائي وكفايتـي بك وبخيار خلقك» الدعاء(٢١) مـن الصحيفة الكاملة للامام زين العابدين.

٢٧- الشوق الى اللّه:

«وامنن عليّ بشوقـي اليك، والعمل لك ما تحب» الـدعاء(٢١) من الصحيفة الكاملة.

«وامنن عليّ بشوق اليك» الدعاء(٢١) من الصحيفة الكاملة.

وفيما يلي نحاول أن نشرح بعض مفردات هذه العناصر:

العبودية

والعبودية لله هي الاساس في علاقة الانســان باللّه تعالى وبالكون والمجتمع. وهي التـي تحدد مركز الانســان في الكون والمجتمـع. وقد أعطى الاسلام العبـودية. موقعاً مركزياً في حياة الانسان وتفكيره ومواقفه.

فهي تنعكـس إنعكاساً مباشـراً وواضحاً وتتحكم فـي سلوك الانسان وعلاقـاته ومـواقفه وتصـوراته، كمـا تنعكس علـى مشاعـره وعواطفـه. وحالـة «العجب» فـي الانسان من الحالات التي تتأثر بالعبودية سلباً وإيجاباً بصورة مباشرة.

فاذا إستقرت علاقة الانسان باللّه على أساس العبودية وما تستتبع من الانكسار والتضرع والتذلل بين يدي اللّه فسوف لا يملكه العجب ولا يكبر لديه «الأنا»، وتغلب عليه صفة العبودية حتى تكون الصفة البارزة في كل تحركاته وتصرفاته.

ولقد كانت صفة العبودية بارزة في رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم حتى في طريقة جلوسه وكلامه، وكان يكره أن يتميز عن الآخرين في مجلس أو حركة فعابت عليه صلّى الله عليه وآله وسلّم إمرأة كانت مشهورة بسوء الادب هذه الخصلة، وقالت له صلّى الله عليه وآله وسلّم كل شيء فيك حسن إلا إنك تجلس مجلس العبيد، فقال لها صلّى الله عليه وآله وسلّم بعفوية وبساطة: «ومن أعبد مني»، يقول أمير المؤمنين عليه السّلام في صفة رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم:

ولقد كان صلى اللّه عليه وسلم يأكل على الارض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته فيكون فيه التصاوير فيقول يا فلان غيبيه عني فإني اذا نظرت اليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً، ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن النظر. وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر اليه، وأن يذكر عنده...(١)

ويحضرني من الشعر في صفة بعض المقاتلين:

سمة العبيد من الخشوع عليهم ... للّه إن ضمتهم الاسحار
فإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم ... بيض النواصي أنهم أحرار

وواضح أن للعبيد سمة متميزة واضحة في حركتهم وسكونهم ومأكلهم ومشربهم وملبسهم وكلامهم وسكونهم.

يحكى عن بعض العارفين الزهاد المشهورين أنه كان قبل أن يتوب من أهل

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم: ١٦٠.

الترف والبذخ، وكـانت له ليالٍ حمـراء عامرة بالشـرب والطرب فمر الامام مـوسى بن جعفر عليه السّلام علي داره ذات يوم ولفت نظره ضجة الغناء والطرب والسكر فسأل عن صاحب البيت، فأجـابته أمة من خادمات البيت فسألها الامـام موسى بن جعفر عليه السّلام: هو حرّام عبـد؟ فلم تفهم الخادمة مغـزى كلام الامام عليه السّلام وقالت: كيف يكون عبداً وهو يملك المئات من العبيد والاماء.

فقال لهـا الامام: أجل لـو كان «عبداً» لـم يفعل هكـذا، وذهب لشأنـه فسمع الرجل الحوار الذي جـرى بين الامام والخادمة، وفهم مغزى كلام الامـام، فأسرع في طلب الامام فخشي أن لا يدرك الامام فخرج حافياً حتى لحق الامام وتاب على يديه، فعرف بالحافي بعد ذلك، واشتهر أمره وذكره في العارفين والزاهدين.

والذي يقرأ سمات الشخصيـة الاسلامية في النصوص الاسلاميـة يجد أن صفة العبودية هي الصفة المحورية في الشخصية الاسـلامية. يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام في صفة المتقين: «عظـم الخالق في أنفسهم فصغر مـا دونه في أعينهم. فهم والجنة كمـن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمـن قد رآها فهم فيها معذبون. قلـوبهم محزونة، وشرورهم مـأمونه، وأجسادهم نحيفة، وحـاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، ... أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء، قـد براهم الخـوف بري القداح، ينظـر اليهم الناظـر فيحسبهم مرضـى، وما بالقوم من مرض. ويقول لقد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فـي دين وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتحملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى وتحرجاً عن طمع» ...(١)

(١) خطبة المتقين-نهج البلاغة-الخطبة رقم: ١٩٣.

الذكر

والذكـر هو إستشعار عـلاقة العبوديـة وذلك بـإستحضار صفات اللّـه وأسمائه تعالـى الحسنى. فعنـدما يستحضـر الانسان صفـات اللّه وأسمـائه الحسنى يحـدد بشكل دقيق-في قلبه وعقله-موضعه الدقيق من اللّه تعالى، وهو موقع العبودية.

وفي كـل ذكر إستحضـار لصفة من صفـات اللّه وأسمـائه الحسنى، وفـي كل إستحضار لصفـات اللّه وأسمائه الحسنـى وعي وتشخيص لمـوقع الانسان مـن اللّه تعالى.

ولهذا السبـب فإن فـي «الذكر» تكـريساً لعـلاقة العبـودية باللّـه تعالـى، وهذه العلاقة تحدد الأنا وتضعه في موضعه الصحيح من العلاقة باللّه تعالى.

فللذكر إذن دور تربوي مؤثر في مكافحة العجب وفي مقابل ذلك «الغفلة» عن ذكر اللّـه فإنهـا من مصادر العجـب، وبقدر مـا يغفل الانسان عـن ذكر اللّـه يصيبه العجب، ولا شيء يـؤدي الى طيش الأنا وحجبه عـن اللّه وطغيانه وتمـرده على اللّه كالغفلة عن ذكر اللّه.

الشكر

الشكر مـن الوسائل المـؤثرة في كسـر شوكـة «الأنا»، وتكريـس حالة العبـودية وتعبيد الأنا لله تعالى. ذلك أن الشكر ينطوي على إحساس مزدوج بفقر الانسان الى اللّه تعالى وفضل اللّه عز شأنه على الانسان.

وهذا الاحساس المزدوج يتكون من خط صاعد من الانسان الى اللّه، وهو خط الفقر وخط نازل من عند اللّه على عبده وهو خط الفضل والرحمة والرزق.

ويصور القرآن علـى لسان موسى بـن عمران عليه السّلام هذا الاحساس المزدوج أروع تصوير «رب إني لما أنزلت اليّ من خير فقير» والخط النازل من عند اللّه في هذه الآية هو «الخيـر» والصاعد من العبد الى اللّـه هو الفقر ويقع الانسان بيـن هذا الفقر الصاعد-من العبد الى اللّه والخير النازل من اللّه على عباده.

وهذا الفقر الصاعد والخير النازل حالـة دائمة مستمرة في حياة كل الناس ، واذا أنعم الانسان النظـر في هذا الكون عامة ، وفـي حياة الاحياء خاصة يجـد هناك دائماً فقراً صاعـداً من العبد الى اللّـه ورحمة هابطة من اللّـه على العباد ، الشاكـرين منهم وغير الشاكرين . والشكر عملية توعية وتسليط الضوء والوعي على هذا الفقر الصاعد والخير النازل . يحسس الانسان ويشعره بهذا الفقر الصاعد والخير النازل .

روي أن داود سأل اللّه تعالى عن قرينه فأوحـى اللّه اليه أنه متّي أبو يونس فجاء مع سليمان لزيـارته فرآه إذ أقبل وعلى رأسه وفـر من حطب فباعه واشترى طعـامه ثم طحنه وعجنه وخبزه فأخـذ لقمة وقال بسم اللّه فلما إزدردها قال الحمـد لله ثم ففعل ذلك بأخرى وأخرى ثـم شرب الماء فذكر إسم اللّه فلما وضعـه قال الحمد لله يا رب من ذا الذي أنعمت عليـه وأوليته مثل ما أوليتني قد صححت بصـري وسمعي وبدني وقويتني حتى ذهبت الى شجر لم أغرسه ولم أهتم لحفظه جعلته لي رزقاً وسبقت الى من إشتراه مني فاشتريت بثمنه طعامـاً لم أزرعه وسخرت لي النار فأنضجته وجعلتني آكله بشهوة أقوى بها على طاعتك فلك الحمد ، قال ثم بكى .

قال داود يا بني قم فانصرف بنا فإني لم أر عبداً قط أشكر لله من هذا ...[(١)]

ولهذا الوعي والاحسـاس دور كبير ومؤثر في كسر شوكة «الأنـا» وتعبيد الأنا لله تعالى وتكريس حالة عبودية الأنا لله .

الشكر والسكر

وبعكس ذلك ، عندمـا ينتفي هذا الوعي عند الانسان يكبـر الأنا ويبرز ويحتل مساحة واسعة من حياته وشعوره ونفسه وتختفـي حالة العبودية . وهي حالة «السكر» في مقابل «الشكر» . فإن الشكر هو الاحساس الـواعي بفقر الانسان الى اللّه وحاجته الى اللّه .

(١) سفينة البحار١ / ٤٨٦ .

أما «السكر» فهو حالة معاكسة من طغيـان الأنا وغناه عن اللّه وبروز الأنا والبطر والرثاء في حياة الانسان .

و«الشكر» و «السكر» ينطلقـان من رؤيتين مختلفتين تمام الاختـلاف . فالشكر ينشأ من الاحساس بالفقر الى اللّه والسكر ينشأ من الاحساس الكاذب بالاستغناء عن اللّه .

والشكر حالة نابعـة من التعلق والارتباط باللّه والسكر حالـة ناشئة من الانقطاع والانفصال عن اللّه .

ومن عجـب أن «الشكر» و «السكر» كلاهمـا ينشأن من النعمة . فـإن النعمة اذا حلت فـي النفوس الـواعية والمـؤمنة تمخـض عنها الشكـر. واذا حلت فـي النفوس الجاهلة والغـافلة تمخض عنها السكر. «والبلـد الطيب يخرج نباته بـإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً» .

وأول ما نجد التنبـه الى علاقة السكر بـالنعمة في النصوص الاسلاميـة في كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام ... حيث يخاطب المسلميـن العرب بعد أن فتح اللّه تعالى عليهم البلاد وأغدق عليهم النعمة ، وإنتعشت حياتهم الاقتصادية فيقول-عليه السلام : «ثم إنكم معشر العرب أغراض بـلايا قد إقتربت فاتقوا سكرات النعمة واحذروا بوائق النقمة» ... (١)

ويقول عليـه السّـلام أيضـاً : «ذاك حيـث تسكـرون من غيـر شـراب مـن النعمـة والنعيم» ... (٢)

الشكر والدعاء

والشكر مفتاح الـدعاء ومن دون الشكر لا يتيسر لـلانسان أن يدعو اللّـه تعالى

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم : ١٥١ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم : ١٨٧ .

كما ينبغي الدعاء. فإن حقيقة الدعاء هو الشعور بفقر الانسان الى فضل اللّه تعالى، وهذا الوعـي لحاجة الانسان وفقره الى فضـل اللّه تعالى ورحمته هـو أساس الطلب والسؤال من اللّه تعالى في الدعاء.

فالـدعاء إذن بشكله الصحيـح والواعي يتطلـب إحساسـاً واعياً وعميقاً بـالفقر والحاجة الى فضل اللّه ورحمته.

والشكر يمكن الانسان من وعي هذين الامرين معاً: وعي الفقر الصاعد ووعي الرحمة النازلة.

ولذلك نجد أن الادعية تبتدىء غالباً بالحمـد والشكر والتذكير لنعم اللّه تعالى وفضله ورحمته على عباده.

المقارنة بين النسغ الصاعد والنازل في العلاقة باللّه تعالى

ومن الوسائل النافعة في الكف من غلـواء «الأنا» وتعبيده لله تعالى هو المقارنة بين العمل الصاعد من العبد الى اللّه تعالى والـرحمة النازلة من لدن اللّه تعالى على عبده.

فاذا أنعم الانسان النظر في هذه المقارنة إمتلأت نفسه بإحساس عميق بالحياء من اللّـه تعالـى لما صـدر منه. ويختفـي الأنا فـي نفسه ويضمـر، ويبرز فـي نفسه الاحساس بالحيـاء من اللّه والشعور بعظم فضـل اللّه تعالى ورحمته عليـه. وهو من أهم العوامل النفسية في كف غلواء الأنا في العلاقة باللّه تعالى.

وقد كان أحـد الصالحين يعبر عن هـذا المعنى في هذه الكلمة المـؤثرة «اللّهم نستغفرك مما نرفعه اليك ونحمدك على ما تنزله علينا».

وقد ورد ذكر هـذا المعنى في النصوص الاسـلامية كثيراً. ففي دعـاء «الافتتاح» المروي عن الامام المهدي عجل اللّه تعالى فرجـه، والذي يألف المؤمنون قراءته في ليالي شهر رمضان.

«الحمد للـه الذي يجيبنـي حين أناديـه، ويستر علي كـل عورة وأنـا أعصيه،

ويعظم النعمة عليّ فلا أجازيه» ...[١]

وأيضاً ورد في نفس الدعاء: «فلم أرَ مولىً كريماً أصبرَ على عبدٍ لئيم منك علي يا رب إنك تـدعوني فأولـي عنك وتتحبب اليّ فـأتبغض اليك، وتتودد الـيّ فلا أقبل منك. كـأنّ ليّ التطوّل عليك. فلـم يمنعك ذلـك من الـرحمة بـي والاحسان الـيّ والتفضل عليّ بجودك وكرمك» ...[٢]

وتأملوا فـي هذه الفقرات من دعاء أبـي حمزة «الحمد لله الـذي أدعوه فيجيبني وإن كنت بطيئـاً حين يدعونـي، والحمد لله الـذي أسأله فيعطيني وإن كنـت بخيلاً حين يستقرضني والحمد لله أناديه كلما شئـت لحاجتي وأخلو به حيث شئت لسري بغير شفيع فيقضي لي حاجتي.

أنت المحسـن ونحن المسيئـون فتجاوز يا رب عـن قبيح ما عنـدنا بجميـل ما عندك يا غفار بنورك إهتدينا وبفضلك إستغنينا وبنعمتك أصبحنا وأمسينا. ذنوبنا بين يديك نستغفـرك اللّهم منها ونتوب اليـك، تتحب الينا بالنعـم ونعارضك بالـذنوب. خيرك الينا نازل وشرنا اليك صاعد. ولم يزل ولا يزال ملك كريم يأتيك عنا بعمل قبيح فلا يمنعك ذلك من أن تحوطنا بنعمك وتتفضل علينا بآلائك. فسبحانك ما أحلمك وأعظمك وأكرمك.

سيدي أنا الصغير الذي ربيته وأنا الجاهـل الذي علمته وأنا الضال الذي هديته وأنا الـوضيع الـذي رفعته وأنا الخـائف الذي آمنته والجـائع الذي أشبعتـه والعطشان الذي أرويته والعاري الذي كسوته والفقير الذي أغنيته والضعيف الذي قويته والذليل الذي أعـززته والسقيـم الذي شفيتـه والسائل الـذي أعطيته والمـذنب الـذي سترتـه والخاطىء الذي أقلته وأنـا القليل الذي كثرته والمستضعف الذي نصرتـه وأنا الطريد الذي آويته» وهذا هو النسغ النازل من اللّه.

(١) دعاء الافتتاح.

(٢) دعاء الافتتاح.

وأما النسغ الصاعد من العبد الى اللّه : «أنا يا رب الذي لم أستحيك في الخلاء ولم أراقبك في الملاء . أنا صاحب الدواهي العظمى أنا الذي على سيده إجترى أنا الذي عصيت جبار السماء أنا الذي أعطيت على معاصي الجليل الرشا . أنا الذي حين بشرت بها خرجت اليها أسعى ... لا أدري أعجب من جرأتي وعدم حيائي أم من حلمك ورأفتك ... »

والنسغ الصاعد النازل «أنا الذي أمهلتني فما إرعويت وسترت عليّ فما إستحييت وعملت بالمعاصي فتعديت وأسقطتني من عينيك فما باليت ... » . وروى المفيد عن عمر بن محمد المعروف بإبن الزيات عن علي بن مهرويه القزويني ، عن داود بن سليمان ، عن الرضا عليه السّلام عن آبائه عليهم السّلام قالك قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم : يقول اللّه عز وجل : يا بن آدم ما تنصفني أتحبب اليك بالنعم ، وتتبغض اليّ بالمعاصي خيري اليك نازل ، وشرك اليّ صاعد ، أفي كل يوم يأتيني عنك ملك كريم بعمل غير صالح ، يا بن آدم لو سمعت وصفك من غيرك ، وأنت لا تدري من الموصوف لسارعت الى مقته ، [١]

في علاقة الأنا بنفسه

إزدراء الأنانية :

كلما يطلق الانسان لنفسه العنان ، ويعطيه حاجته من البروز والظهور والنفوذ والتميز على الآخرين يزداد أنانية وشرهاً وحرصاً . وقد روي عن رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم : «حسب أمرىء من الشر أن يشير الناس اليه بالاصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه اللّه» . [٢]

وقد كان رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يحرص أن يؤدب أصحابه على أن لا

(١) آمالي الطوسي١/ ١٢٦ عن بحار الانوار٧٣/ ٣٦٥ .

(٢) أحياء العلوم٣/ ٢٧٥ .

يطلقوا لأنفسهم العنان في حب الهيمنة والظهور والبروز. روي عن جابر بن عبد اللّه الانصاري رحمه اللّه. قال: إستأذنت على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم. فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: أنا أنا ... (١)

وفي النصوص الاسلامية يرد كثيراً إبراز وجه البشاعة في الانا، وإزدراء حالة الأنانية في الانسان.

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام ما لإبن آدم وللعجب: أوله نطفة قذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل عذرة. (٢)

ترويض النفس:

ولكبح جماح «الأنا» و «الهوى» ورد في النصوص الاسلامية تأكيد كثير على التضييق على النفس «الهوى والأنا» والتشدد في التعامل معها وترويضها.

فإن النفس جموحة، وكلما أرسل الانسان لها العنان يزداد جماحها، وكلما يضيق الانسان عليها، ويتشدد في التعامل معها تتعدل وتنقاد وتنضبط. والنصوص الاسلامية في ترويض النفس وتطويعها كثيرة. وهذه النصوص اذا جمعت ونظمت تتكون منها مدرسة كاملة في تهذيب النفس وتربيتها. يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام: «وإنما هي نفس أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الاكبر، وتثبت على جوانب المزالق» ... (٣)

وترويض النفس في الحلال يمكن الانسان منها في الحرام، وإرسال العنان لها في الحلال يعجز صاحبها عنها في الحرام. يقول أمير المؤمنين عليه السّلام: «وأيم اللّه يميناً، أستثني فيها بمشيئة اللّه أروض نفسي رياضة تهش معها الى القرص اذا قدرت

(١) صحيح مسلم٣/ ١٦٩٧.

(٢) غرر الحكم للآمدي.

(٣) نهج البلاغة الخطبة رقم: ٤٥.

عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً... أتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض، ويأكل عليٌّ من زاده فيهجع قرّت اذاً عينه اذا إقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية». [١]

إن السائمة تمتلىء من عشبها فتشبع ويشبع الانسان من طعامه كما يحب ويشتهي فيشبع، فماذا يكون الفرق بين هذا وذاك؟ وترسل السائمة لنفسها العنان فيما تشتهي، ويرسل الانسان لنفسه العنان فيما يجب، فبماذا يفترق هذا عن ذاك؟ إن الفرق -في مدرسة عليّ عليه السّلام- بين هذا وذاك: أن الانسان يملك أزّمة نفسه فيما يحب ويشتهي، ويكفها عما تحب وترغب، ويتمكن من نفسه، وتنقاد له دون البهيمة.

ولكي تنقاد للانسان نفسه وتطيعه لابد أن يروضها ويضيق عليها، ويتعبها فيما تحب من الحلال، حتى يتمكن منها فيما يزجرها عنه من الحرام.

ولكي تنقاد له نفسه فيما يأمرها مما تكرهه نفسه، وتشق عليها كالجهاد والصيام يمنعها سؤلها فيما تحب كالطيبات المباحة. يقول أمير المؤمنين عليه السّلام عن ذلك في خطبة المتقين لهمام: «إن إستصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب». [٢]

وهذا المنهج التربوي الذي يشرح الامام أصوله وقوانينه لا يدخل في الحلال والحرام، فليس يجب على الانسان أن يمنع نفسه مما تحب من الحلال، ولا يحرم على الانسان أن يتمتع بما أحل اللّه من الحلال. وهذا واضح، ومؤكد، ولا نقاش فيه ولكن من يريد أن يمسك أزمة نفسه، ويلجمها في الحرام عليه أن يروض نفسه ويقهرها ليتمكن منها في الحرام.

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام: «إمرءٌ لجم نفسه بلجامها وزمّها بزمامها، فأمسكها

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم: ٤٥.

(٢) نهج البلاغة خطبة المتقين «خطبة همام».

بلجامها عن معاصي اللّه، وقادها بزمامها الى طاعة اللّه» .[١]

و«اللجام و «الزمام» هو الذي يمكن راكب الفرس من أن يقودها ويوجهها .

والانسان يتمكن من نفسه بأمرين إثنين معاً، تقوية الارادة وقهر النفس . أما اذا ضعفت إرادته وجمحت نفسه فسوف لايستطيع أن يضبطها وشهواتها عند حدود اللّه .

وهذا الترويض والتضييق والتشدد وإن كان في الغالب للهوى، إلا أنه ينعكس على «الأنا» إنعكاساً إيجابياً فيخفف من غلوائه، ويضبطه ويكبح جماحه، ويكفكف من طغيانه وتطرفه .

محاسبة النفس ونقدها :

وهي حالة نافعة في كسر شوكة الأنا وتحجيمه وتحديده . فإن الانسان اذا وضع نفسه «الهوى والأنا» تحت مجهر النقد الدقيق وأخضعها للحساب سرعان ما يكشف نقاط الضعف فيها، فتضمر عنده حالة الأنانية وينشغل الانسان بعيوبه . ونقاط الضعف في نفسه، عن «الأنا» وحب البروز والشهرة، كما ينشغل بنفسه عن الاهتمام بعيوب الآخرين .

عن أبي عبد اللّه الصادق قال : «اذا رأيتم العبد متفقداً لذنوب الناس، ناسياً لذنوبه فاعلموا أنه قد مكر به» .[٢]

عن أبي جعفر عليه السّلام قال : «قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم إن أسرع الخير ثواباً البر، وأسرع الشر عقاباً البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه» .[٣]

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم : ٢٣٥ .

(٢) البحار ٧٥/ ٢١٥ .

(٣) البحار ٧٥/ ٢١٥ .

وفي مقابل ذلك ينهى القرآن عن تزكية النفس وتبرأتها من نقاط الضعف يقول تعالى: ﴿ فلا تُزكّوا أنفسَكم هو أعلم بمن اتّقىٰ﴾ (النجم: ٣٢)

ويقول تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الّذين يزكّون أنفسهم بلِ اللّه يُزكّي من يشاء ولا يُظلَمون فتيلاً*انظر كيف يفترون علَى اللّه الكَذبَ وكفىٰ به إثماً مبيناً﴾. (النساء: ٤٩-٥٠)

ومن المزالق التي تواجه الانسان تزكية الآخرين له، فإنها تَغر الانسان وتخدعه وتوحي اليه بالبراءة والنزاهة. ومن هذه الثغرة يدخل الشيطان في نفسه، ويدخل العجب الى نفسه.

ولذلك فإن الواعين من المؤمنين يتحسسون من التزكية والمدح، ويتخوفون منه، ويشعرون بالخطر من ناحيته. يقول أمير المؤمنين عليه السّلام في وصف المتقين «ولا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير فهم لانفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، واذا زكي أحدهم خاف مما يقال له ويقول أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم مني بنفسي. اللّهم لا تؤاخذني بما يقولون. واجعلني أحسن مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون». (١)

وفي مقابل تزكية النفس وتبرأتها ورد التأكيد في النصوص الاسلامية على التدقيق في ملاحقة النفس وأعمالها ونقدها نقداً موضوعياً دقيقاً وصارماً. فإن الانسان لو عرض أعماله لنقد موضوعي دقيق وصارم لا يجد أن شيئاً من عمله قد سلم له إلا القليل فتضعف ثقته بنفسه وأعماله، وتعظم في مقابل ذلك ثقته برحمة اللّه تعالى وفضله.

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام: «الدنيا كلها جهل إلا مواضع العلم، والعلم كله حجة إلا ما عمل به، والعمل كله رياء، إلا ما كان مخلصاً، والاخلاص على خطر عظيم حتى ينظر العبد ما يختم له». (٢)

(١) نهج البلاغة خطبة المتقين.

(٢) بحار الانوار٢/ ٢٩.

وتوضيح الرواية: أن قيمة العمل بالعلم والوعي والمعرفة، فلا قيمة لعمل يأتي به الانسان عن جهل.

وكل علم حجة ضد الانسان يحتج به اللّه تعالى على عبده إلا اذا عمل الانسان بالعلم.

فلا قيمة للعمل من غير علم ... والعلم حجة ضد الانسان إلا اذا عمل بموجبه الانسان.

وكل عمل لا قيمة له اذا كان غير مخلص لله فإن قيمة العمل بالاخلاص، كما أن قيمته بالعلم والمعرفة.

والاخلاص على خطر عظيم، فلا يعلم الانسان كيف يختم حياته وأين يتربص به الشيطان والانسان ضعيف والحياة منزلق خطر اذا لم يعصم اللّه تعالى الانسان واللّه العاصم.

والمؤمن الواعي ظنون بنفسه، يضع نفسه دائماً موضع الاتهام، ويحرج نفسه كثيراً في المحاسبة والتدقيق. وهو في الوقت الذي يحسن الظن بالناس يسيىء الظن بنفسه.

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام: «واعلموا عباد اللّه أن المؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا ونفسه ظنون عنده فلا يزال زارياً عليها ومستزيداً بها». [١]

عدم الخروج من حدود التقصير:

من ثغرات الضعف التي يدخل منها «العجب» الى نفس الانسان هو إستكثار العمل وإستقلال الذنوب.

والانسان اذا لم يوجه نفسه توجيهاً صحيحاً يميل الى إستكثار ما يفعله من عمل صالح قليل والى إستقلال ما إرتكبه من سيئات وذنوب.

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم: ٢١١.

وهذا الاستكثار والاستقلال هو مدخل من أعظم مداخل الشيطان الى نفس الانسان. ونقطة ضعف يدخل منها العجب الى نفس الانسان.

ووردت إشارات وتنبيهات كثيرة في النصوص الاسلامية الى خطورة هذا التصور. روي عن رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أربعة في الذنب شر من الذنب الاستحقار والافتخار والاستبشار والاصرار». عن علي عليه السّلام: «شر الذنوب ما إستهان به صاحبه». وعن أبي جعفر الباقر عليه السّلام: «من الذنوب التي لا تغفر قول الرجل ليتني لم أؤاخذ إلا بهذا». وعن أبي جعفر الباقر عليه السّلام: «إياكم ومحقرات الذنوب فإن لها من اللّه طلباً. وإنها لتجتمع على المرء حتى يهلكه». وعن أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام: اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر. قال الراوي: وما المحقرات من الذنوب؟. قال عليه السّلام: الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لو لم يكن لي غير ذلك. وعن الصادق عليه السّلام: «إن اللّه يحب العبد أن يطلب اليه في الجرم العظيم ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير».[(١)]

في مناهي رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: لا تحقروا شيئاً من الشر، وإن صغر في أعينكم، ولا تستكثروا الخير، وإن كثر في أعينكم، فإنه لا كبير مع الاستغفار ولا صغير مع الاصرار.[(٢)]

وعن أبي محمد عليه السلام قال: من الذنوب التي لا تغفر «قول الرجل» ليتني لم أؤاخذ إلا بهذا ثم قال عليه السّلام الاشراك في الناس أخفى من دبيب النمل على المسح الاسود في الليل المظلمة.[(٣)]

وعن أبي هاشم الجعفري، قال سمعت أبا محمد عليه السّلام يقول: من الذنوب التي لا تغفر قول الرجل ليتني لم أؤاخذ إلا بهذا. فقلت في نفسي: إن هذا لهو

(١) المحاسن: ٢٩٣، بحار الانوار٧٣/ ٣٥٩.

(٢) آمال الصدوق: ٢٦٠.

(٣) تحف العقول: ٤٨٧.

الدقيق، ينبغي للرجل أن يتفقد من أمره ومـن نفسه كل شيء، فاقبل عليّ أبو محمد عليه السّلام. قال يا أبا هاشم صدقت فالزم ما حدثت به نفسك. فإن الاشراك في الناس أخفى مـن دبيب الـذر على الصفـا في اللية الظلمـاء ومن دبيـب الذر علـى المسح الاسود.[١]

وعن الامام الباقر عليه السّلام: ثلاث قاصمات الظهر: رجـل إستكثر عمله ونسى ذنوبه وأعجب برأيه.

وفي رواية يقول إبليس اذا إستمكن من بني آدم فـي ثلاث لـم أبال ما عمل، فإنه غير مقبول منه، اذا إستكثر عمله ونسي ذنوبه وأعجب برأيه.

تحسيس النفس بالتقصير:

وفي النصوص الاسلامية تأكيدات كثيـرة على ضرورة تحسيس النفس بالتقصير في العمل، وتعميـق الاحساس بالتقصير في طاعـة اللّه تعالى وعبادتـه، ومهما كان عمل الانسان أكثر ينبغي أن يكون إحساسه بالتقصير أكثر. عن فضل بن يونس قال: قال لي أبو الحسن عليه السّلام: أكثر من أن تقـول اللّهم لا تجعلني من المعـارين ولا تخرجني من التقصير قـال قلت أما المعـارون فقد عـرفت أن الرجـل يعار الديـن ثم يخرج منه فما معنى لا تخـرجني عن التقصير؟ فقال عليه السّلام: كل عمل تريد به اللّه عز وجل فكن فيه مقصراً عند نفسك، فإن النـاس كلهم في أعمالهم فيما بينهم وبين اللّه مقصرون إلا من عصمه اللّه.[٢]

عن موسى بن جعفر لأحد أولاده: يا بنـيَ عليك بالجد، لا تخرجن نفسك من حد التقصير في عبادة اللّه وطاعته فإن اللّه لا يعبد حق عبادته.[٣]

(١) البحار٧٣/ ٣٥٩.

(٢) أصول الكافي -كتاب الانسان والكفر.

(٣) أصول الكافي -كتاب الانسان والكفر.

وعن الباقر عليه السّلام يا جابر لا أخرجك اللّه من النقص والتقصير.[١]

وعن أبي الحسن الرضا عليه السّلام قال: إن رجلاً في بني إسرائيل عبد اللّه أربعين ثم قرب قرباناً فلم يقبل منه فقال لنفسه ما أتيت إلا منك ولا أكديت إلا لك قال عليه السّلام فأوحى اللّه تبارك وتعالى اليه ذمك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين سنة.[٢]

والخروج عن دائرة التقصير يدخل الانسان في مهالك عظيمة، فإن الانسان اذا خرج عن دائرة الاحساس بالتقصير يدخل في دائرة المن على اللّه تعالى.

وقيمة العبادة أنها تكسب الانسان الذل بين يدي اللّه تعالى. فاذا تحولت الى أداة لتحسيس الانسان بالمن على اللّه، فقدت قيمتها وانقلبت الى ضدها فليس بين الاحساس بالتقصير والاحساس بالمن فاصلة. والاحساس بالمن من الكفر لأنه من الاستعلاء على اللّه والاستكبار على اللّه. يقول تعالى: **﴿يَمنّون عليك أن أسلموا قل لا تَمنّوا علىّ إسلٰمَكم بل اللّه يَمُنُّ عليكم أن هديٰكم للإيمٰن إن كنتم صٰدقين﴾**(الحجرات: ١٧). **﴿لا تُبطِلوا صدَقٰتِكم بالمَنِّ﴾**(البقرة: ٢٦٤). **﴿ولا تَمنُن تستكثِرُ﴾**(المدثر: ١٧). وقد ورد التأكيد على أهمية الاحساس بالتقصير حتى لو كان هذا التقصير نابعاً عن الذنب. أوحى اللّه الى داود: بشر المذنبين وأنذر الصديقين. قال كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟ قال تعالى يا داود بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فليس عبد أنصبه اللّه للحساب إلا هلك.[٣]

وعن الصادق عليه السّلام: «إن كان الممر على الصراط حقاً فالعجب لماذا».[٤]

واذا أحب اللّه عبداً يسلبه أحياناً توفيق العبادة حتى يسلم له شعوره بالتقصير ولا يغزوه الشيطان من ثغره العجب والغرور.

(١) أصول الكافي -كتاب الانسان والكفر.

(٢) البحار٧١/ ٢٢٨.

(٣) البحار٧٢/ ٣١٣.

(٤) البحار٧٢/ ٣١٤.

عن رسـول اللّه عن اللّه تعـالى : «أنا أعلم بمـا يصلح به أمر عبـادي ، وأن من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادته فيقـوم من رقاده ولذيذ وساده فيجتهد ويتعب نفسه في عبادتي ، فأضربه بالنعـاس الليلة والليلتين نظراً مني له ، وإبقاء عليه ، فينام حتى يصبح فيقوم مـاقتاً لنفسه زارياً عليها ، ولو أخلـي بينه وبين ما يريد مـن عبادتي لدخله من ذلك العجب بأعماله فيأتيه ما فيه هلاك لعجبه بأعماله ورضاه عن نفسه ، حتى يظن أنه قد فاق العابدين وجاز فـي عبادته حدّ التقصير، فيتباعد مني وهو يظن أنه تقرب اليّ» . (١)

وعن الباقرين عليهما السّلام: أن إللّه تبارك وتعالى يقول : إن من عبادي من يسألني الشيء من طاعتي لأحبّه فأصرف ذلك عنه لكيلا يعجبه عمله» . (٢)

سيئة تسوؤك خير من حسنة تعجبك

قد يرتكب الانسان سيئة فتسوؤه ، ويملكـه الندم ، ويحاسب نفسه بها ، ويضع نفسه بسبب ذلك موضع المحاسبة والنقد والتجريح . ويرتكب حسنة فتسره ويعجب بها وتمتلىء نفســه زهواً وإعجاباً ... فتكون تلك السيئـة التي ساءته خيراً لـه من تلك الحسنة التي أعجبته .

فإن تلك السيئة وضعتـه موضع التقصير وحسسته بالندم وأشعـرته بذل التقصير بين يدي اللّه ، وهذه الحسنة ملأت نفسه بالعجب والزهو.

عن الصادق عليه السّـلام: «أن الرجـل ليذنب الذنـب فيندم عليه ويعمـل العمل فيسره ذلك فيتـراخى عن حالـه تلك . فلأن يكون على حـاله تلك خير لـه مما دخل فيه» . (٣)

(١) البحار٧٢/ ٣٢١ .

(٢) البحار٧١/ ٢٣١ .

(٣) الكافي : ، البحار٧٢/ ٣١١ .

عن عبد الرحمن بن الحجاج قال قلت لأبـي عبد اللّه الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ثم يعمل شيئاً من البر فيدخله شبه العجب فقال هـو في حاله الاولى وهو خائف أحسن منه حالاً في حال عجبه .[١]

عن الصادق عليه السّلام: يدخل رجلان أحدهما عابـد والآخر فاسق فيخرجان من المسجد والفاسق صـديق والعابد فاسق وذلـك أنه يدخل العابد المسجـد وهو مدل بعبادته ويكـون فكره في ذلك، ويكون فكـرة الفاسق في التندم علـى فسقه فيستغفر اللّه من ذنوبه .[٢]

عن علي عليه السّلام: سيئة تسؤك خير عند اللّه من حسنة تعجبك .[٣]

عن علي عليه السّلام: ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه .[٤]

مكة المكرمة في ١٩ ذي الحجة

١٤١١هـ

محمد مهدي الاصفي

(١) البحار ٧٢/ ٣١٢ .

(٢) البحار ٧٢/ ٣١٦ .

(٣) نهج البلاغة الحكمة رقم : ٤٦ .

(٤) البحار ٧٧/ ٤٢١ .